
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
38
سافاري
الأخير

مقـــدمـة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (ســافارى) هــى البطـل الحقيقــى لهـذه القصــص ، و(ســافارى) مصطلح غربى معنــاه (صيد الوحوش فى أدغـال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الـراء واليـاء لتتحـول الكلمـة إلى (ســافاراى) .. لا أعـرف فى الحقيقـة سبب هـذا الخطأ ، لكنــه خطأ شـائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبهـا الجميع بعد (واو) ليســت (واو جماعــة) علــى غـرار (أرجوا الهدوء) . ولـو كنـت ترغب فـى معرفـة النطق الغربـى للفظــة (ســافارى) فلتتخيـل أنهــا (صــفرى) بفتــح الصــاد والفــاء ..

وحـدة (سـافـارى) التى نتكلم عنهـا هنـا لا تصطاد الوحوش ولكنهـا تصطاد المرض فـى القـارة السوداء ، وسـط اضطرابـات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دوليـة لكن بطلكم الفقير المعترف بـالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامـل الطرد فـى وطنه فـانطلق يبحث عن فرصـة فـى القـارة السـوداء .. انطلـق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجـد الحـب .. الطبيبـة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صـارت زوجتـه .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبـائل المعادية والمرتزقة الذين لايمزحـون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنـا مـن العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصـص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسـة ! لا أعرف إن كـان هنـاك مجنـون آخـر قد جـرب أن يصب هذا الخليـط فـى كئوس ويقدمهـا لكم ، لكنـى لـم ألـق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

* * *

يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا علـى الرمـال .. بعدما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هـا هنـا مرة فى فجر الزمان ؟

أغنيـة حقيقية لقبائل البوشمن

1 - قرار إزالة

الليل لا يريد أن يتحرك ..

ضيف ثقيل سمج يتصور أنه هدية الأقدار لك، وأنت لا تحلم إلا باللحظة التى ينظر فيها لساعته ويعلن (حان الوقت كى أنصرف) .. لكنه لا يفعل .. لأنه وقح . لأنه خال من اللياقة .. لأنه يتصور أنك مستمتع بهذا كله ..

وأنا أرمق الروسى مفكرًا ..

قصته سخيفة .. إنها السخف مجسدًا .. لكنها تظل مع هذا أقرب الفروض للتصديق .. هناك فى علم المنطق ما يدعى بـ Ockham's razor (موسى أوكام) أو (قانون الشُّحّ) .. عندما يوجد أكثر من تفسير لظاهرة ما، فإن أبسطها هو الصحيح .. الفتاة التى تزوجت وانقطع عنها الطمث وبدأت بطنها تتضخم، ليست مصابة بسرطان المبيض .. على الأرجح هى حامل !

هكذا يقدم لى الروسى تفسيرًا بسيطًا يمسك بكل شىء فى ذات اللحظة، لكنى ببساطة لا أصدقه ..

* * *

« أمس عندما اختفى أخو هذا الرجل .. خرجنا من الكوخ وكان هناك عدد من النساء والأطفال .. عندما كنت أوقظك اصطدمت بالموضع الذى كانت فيه (مارثا) نائمة .. كان خاليا أو هذا ما حسبته فى الظلام »

« هل تجد أى تفسير منطقى لاختفائها من الطائرة ؟ الأمر لايحتاج إلى ذكاء .. طائرة مغمورة بالرمال لا يوجد فيها إلا باب واحد .. فتحناه أنا وأنت .. برغم هذا لم نجدها فى الطائرة وعلينا أن نصدق أنها اختفت فى الثوانى التى فقدنا فيها الوعى .. اختفت وأعادت الرمال لتغطى الطائرة »

ـ « ليتنى أعرف .. كل ما أدركه هو أننا واقعون فى قبضة ساحرة شريرة تعبث بالعقارب وتقتل البوشمن .. ساحرة جاءت من نفس عالم (سكوتى سميث) .. باختصار : أعتقد أن (مارثا) هى ذاتها (سكوتى سميث) ! »

* * *

لكن إن كانت كلماته فشلت فى كسب مصداقية عندى ، فقد نجحت بشدة فى أن تطرد النوم من عينى .. أين (مارثا) ؟ إنها نائمة مع النساء ، بينما يقف محارب البوشمن الذى أطلقت عليه (مطارد النحل) خارج الكوخ ، وقد ثنى ساقه ليلصق كف قدمه اليمنى فى ساقه اليسرى .. يبدو أنها وقفة مريحة جدًا .. إنهم قادرون على الوقوف عدة ساعات بهذا الشكل ..

لا أعتقد أنه قادر عن الدفاع عنا على كل حال .. ليس من عتاة المحاربين مثل (الماساى) و(الزولو) ، إن البوشمن مسالمون وقتهم موزع بين الصيد والحصاد والجنى .. الرجل الذى يطارد النحل ليس بالتأكيد أصلح من يحمينا من (سكوتى سميث) ..

عينى على الخيمة .. لو كان كلام الروسى صحيحًا لرأيتها تخرج .. ولو كان أكثر صحة لما رأيتها أصلاً .. سوف تباغتنى من الخلف لتقطع حلقى ..

هكذا مضت الليلة بين الكوابيس والسِّنَة والإفاقة الكاملة المذعورة .. لا أعرف كيف يترجمون تعبير hypnagogic state لكنه يعبر بالضبط عن تلك الحالة الغريبة بين النوم واليقظة ..

قتلى ؟ لا أعتقد أن هناك قتلى ..

يبدو أن الأخ (سكوتى سميث) قرر أن يستريح ويريح ولو ليلة واحدة ..

وعندما شعرت بأشعة الشمس تحرق أجفانى ، وعندما سمعت الحركة والكلام من حولى ، وعندما راح ذباب الصحراء السمج يحاول اقتحام فمى .. عندها نهضت فى خجل شاعرًا بأننى عار تمامًا .. عندما تكون نائمًا وسط حشد من القوم المستيقظين تشعر بأنك مكشوف تمامًا ..

نهضت متسائلاً عن برنامج اليوم ..

دنت منى امرأة ذلك (البوشمن) فنــاولتنى ورقــة شـجر عليها معجون كريه .. هؤلاء القوم تعشوا نعامًا وأنا لم أذق إلا الفاكهـة .. الآن أنا مشمئز .. كأنه كتب على ألا آكل لأسباب دينية أو بسبب الاشمئزاز ..

هكذا وضعت الورقة جانبًا وبحثت عن بعض الفاكهة الغامضــة وابتلعت ثلاث أو أربع حبات ..

كانت الفتاتان (مارثا) و(سيمونيتا) الآن معًا وقد بدا عليهمــا الانتعاش كمصيبتين .. لقد نامتا جيدًا كما هو واضـح ، بينمـا أنـا و(فاسيلى) تصلح صورتانا للتعليق على جدار قسم (الوايلى) .. ابحث مع الشرطة ..

قالت (سيمونيتا) :

ـ « ما هو برنـامج اليوم ؟ »

قلت متعكر المزاج :

ـ « لا برنامج .. هؤلاء القوم اتخذوا مسكنهم هنا .. لـن يتحركوا .. لو شئنا أن نرحل فهذه مشكلتنا نحن .. »

ونظرت إلى (مارثا) فى شك .. لا أصدق حرفًـا من هواجسـى ، لكنى برغم هذا لا أحب أن أدير ظهرى لهذه الفتاة أبدًا ..

تحتاج إلى وقت طويل إلى أن تتعلم كيف تثق بفتاة خرجت سالمة من حطام طائرة ، دون أن تفتح أى باب ، وتعبر الصحراء ، وتحب العقارب ..

جلسنا على الرمال ننظر إلى الطبيعة من حولنا ..

قالت وهى ترفع يدها لتتقى الشمس الحارقة :

- « لا أعرف أين نحن بالضبط .. لكننا على الأرجح فى بتسوانا أو قريبون من ذلك .. »

قلت لها وأنا أجمش الرمال فى قبضتى :

- « يا سلام ! نجتاز حدود دولة ذات سيادة إلى دولة ذات سيادة بهذه البساطة ؟ »

لكنى كنت ذا خبرة فى أفريقيا .. أذكر جيدًا كيف انتقلت فى عملية تسلق (كليمنجارو) من (كينيا) إلى (تنزانيا) تدريجيًا .. إنها تلك النقط على الخارطة حيث يصعب رسم الحدود ، وحيث لا تلقى القبائل بالاً إلى حقيقة أنها فى (كينيا) أو (تنزانيا) .. أردت أن أقول إننا فى الحقيقة إذ توغلنا فى الصحراء إنما كنا كذلك نعبر الحدود إلى (بتسوانا) .. هنا نحن أولاء نتحرك فى كالاهارى التى تستحيل

مراقبتها بدقة .. وبهذا نعبر من سيادة دولة إلى دولـة أخرى .. الطبيعة كانت وستظل أقوى من الحدود الجغرافية .. بـل هى تسـخر منها .. ليت حرس الحدود يقبضون علينا .. لكن أين هم ؟

قالت (مارثا) وقد ارتسمت الجدية على ملامحها :

ـ « هؤلاء البوشـمن يعرفون أنهـم يجب ألا يقتربوا أكثر .. إنهم هاربون من الحجر ! »

حجر ؟ عم تتكلمين ؟

قالت فى جدية :

ـ « إن حكومة بتسوانا تحاول أن تحصرهم فى محميات ضيقـة يقيمون فيها .. محميات فى قلب (كالاهارى) .. فى الواقع ليس هذا للحفاظ عليهم بل لإبادتهم .. نحن فى زمن لا يرحب بهؤلاء القوم ولا يريدهم .. لا مكان للبوشمن فى عالم اليوم ، لهذا تصر حكومـة بتسوانا على تقييد حريتهم فى المحميات ، وفى الوقت ذاته تحرمهم من أية وسـيلة محترمـة للعيش .. لا صيـد ولا زراعـة .. معنـى هذا أنها تعدمهم ببطء .. هنـاك بوشـمن كثيرون فروا مـن هـذه المعسكرات وتركوا نفسهم لرحمة الصحراء .. الصحراء التى لـم تقس عليهم قط كما قسا الإنسان .. »

ثم أشارت إلى الأسرة التى نحن فى ضيافتها ، وقالت :

ـ « هؤلاء فارون .. لكنهم لو اقتربوا أكثر لقبضت عليهم الحكومة البتسوانية وألقتهم فى المحميات .. على كل حال هى سياسة ناجحة لأن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف .. »

قلت لها فى ذعر :

ـ « إذن (سكوتى سميث) لم يكن يفعل إلا ما تقتضيه الحضارة .. »

قالت باسمة فى مرارة :

ـ « كان صيد البوشمن نشاطًا رياضيًا مسموحًا به .. وفى علم 1870 انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد .. آخر رخصة تسمح بصيد البوشمن أصدرتها ناميبيا عام 1936 .. بعد هذا صار تجويعهم أقرب إلى التحضر .. »

شعرت بقشعريرة ..

شد ما تبلغ قسوة الإنسان بأخيه الإنسان .. أى أن صيد البشر كان نشاطًا قانونيًا حتى الثلث الأول من القرن العشرين .. بدائيون .. نعم .. متخلفون .. نعم .. لكن لهم الحق فى الحياة مثل أى واحد آخر .. إنهم تراث حضارى ثرى من الخسارة أن

يضيع .. لقد خلقهم الله ومن حقه وحده أن يزيلهم من على وجه الأرض ، وإلا وجدت من يرغب في إزالتي أنا نفسي يومًا ما .. الحقيقة أن العرب سيجدون بسهولة من يرغب في إزالتهم فعلاً ..

إنها لحياة قاسية يا زميلي .. حقًا هي كذلك ...

★ ★ ★

2ـ فلنجرب حظنا ..

كان مطارد النحل جالسًا يتأمل آثار الصيد على الرمال ..

قالت لى (مارثا) وهى تراقب جلسته المتأملة :

ـ « اسمه (توى) .. »

قبل أن تلفظ الاسم طرقعت بلسانها تلك الطرقعة التى تذكرك بصوت (توت تـوت) المستنكر .. هكذا عرفت أن الاسم يكتب هكذا : (Twi/) .. لست غبيًا جدًا لو كنت قد لاحظت هذا ..

ثم أردفت :

ـ « هناك صبى مراهق فى الأسرة اسمه (توى) .. ليس من أبنائه .. حسب قواعدهم الغريبة يحق لأم (توى) الصغير أن تعتبر (توى) الكبير ابنها .. و(توى) الكبير يعتبر أخت (توى) الصغير أخته .. (توى) الصغير يعتبر زوجة (توى) الكبير زوجته .. ابنة (توى) الكبير محرمة على (توى) الصغير لأنها تعتبر ابنته ! »

ارتجفت للفكرة .. معنى هذا أن ابنة أى رجل يدعى (علاء) محرمة علىّ .. ومعناه أن أى رجل يدعى (علاء) له أن يعتبر (برنادت) زوجته ! بل إن أمى هى أم أى (علاء) فى مصر !

لكن الأمر سهل هنا نسبيًا لأن عدد الجماعة صغير جدًا ..

كـان الرجـل يراقـب الأثـر فـى حنكـة وهـو جـالس فـى وضـع القرفصاء لكنه يمشى للأمام .. طريقة مشى صعبة جدًا كنا نُجبر عليها فى المدرسة الثانوية العسكرية على سبيل (التكدير) .. يبدو أن عضلات فخذى هؤلاء القوم من حديد .. التجاعيد تزدحم فى وجهـه وجبينـه .. إن البوشمن يتجعد جلدهم بسرعة غير عادية وهذه صفة تميزهم .. الجلد الزيتونى المجعد .. دعك من علامات التركيز على وجهه كأنه يحل معادلة ذرية ما ..

قالت (مارثا) التى لاحظت اهتمامى بما يدور أمامى :

ـ « إنه يتفحـص روث تيتـل أفريقـى .. يمكنـه أن يخمـن سـن الحيوان من جفاف وصلابـة الروث .. إنـه يعرف منذ متـى مر الحيوان عن طريق ملاحظة أعشاش النمـل الأبيض التـى هدمها الحيوان أثناء مشيه .. بعد فترة يعيد النمل بنـاء أعشاشـه وهذه الفترة يعرفها البوشـمن بـالخبرة .. يعرف متـى يستعيد العشب شكله الأصلى بعد مرور التيتـل .. يعرف متـى يعاود العنكبوت نسج شباكه .. عندما يصيب رمح البوشمن حيوانـا فهو يتوقـف أولاً لدراسة الأثر الذى تركه الحيوان ، قبل أن يلحـق بـه .. هذه هى الخبرة التى أبقت البوشمن أحياء حتى اليوم فى هذه الطبيعـة المعادية .. »

كان (توى) يبتعد بطريقته الغريبة ، فاقتادتنى (مارثا) ممسكة بيدى إلى حيث جلست النساء يصنعن الأسهم ..

إنهن يمسحن العود فى الرماد ، ثم يلطخن نهايته بالقار الذى يضعنه فى وعاء فخارى .. ثم يلففن حوله لحاء الشجر ، ويصنعن فى نهايته ثلمًا يسمح بمرور وتر القوس .. وفى الطرف الآخر يغرسن قطعة مدببة من عظام الزراف .. ثم يلطخن قطعة العظام بالسم الذى يحفظنه فى قرن وعل .. لاحظت أن النساء يغرسن الخرز فى جباههن ليزين كل تجعيدة هناك ..

ليس من المعتاد لدى البوشمن أن يملكوا قطعانًا من الماشية أو يزرعوا .. إنهم (صيادون/ جامعون) فقط ولا يعرفون شيئًا عن الملكية الفردية ..

قلت لـ (مارثا) :

- « هؤلاء القوم هم أبناء الطبيعة .. إنهم نوع من الفهود والتماثل .. يبدو لى أن مطاردتهم وقتلهم مستحيلة .. فكيف استطاع البيض ذلك ؟ »

- « الطبيعة لا تستطيع أن تواجه طلقات الرصاص .. »

قالتها ببساطة ونهضت لتجلس جوار النسوة لتعاونهن فى صنع السهام ..

نظرت إلى حيث كان (مطارد النحل) فوجدتـه قد توارى عن عينى تمامًا ..

عسى أن يجد التبتل الذى يبحث عنه ..

* * *

كان المنظر بديعًا لا يمكن تخيله إلا لو رأيته .. هنا يحنى القلم رأسه فى خجل ويتنحى جانبًا للكاميرا أو ريشة الفنان ..

مجموعة من أشجار (شوكة الجمل) .. تحيط بكل غصـن من أغصـان الشجر مجموعـة من أعشـاش الطائر النساج ـ وهو طائر جميل يذكرك بالببغاء ـ وكل عـش منها يناهز مترين فى القطـر .. مـن وإلـى هـذه الأعشـاش تدخـل الطيـور بـلا توقـف .. مشهد يحبس الأنفـاس بحق .. إنه من العلامات المميزة لصحراء (كالاهارى) ..

حينمـا يجتمـع مـع هـذا المشـهد عدد لا بـأس بـه مـن حبيبـى المشـاغب (الميركـات) ، تشـعر بـأنك توشـك علـى الصراخ مــن الانبهار ..

(كالاهارى) ! قدور الملح !

الصحراء التى ضعنا فيها ، وها نحن أولاء على حافة النجاة ، لكننا بعيدون عنها برغم ذلك ..

وقفنا نرمق المشهد ذاهلين ، ولا شعوريًا امتدت أنامل (فاسيلى) تعتصر أنامل (سيمونيتا) ... هذه من اللحظات التى تكون فيها الروحان على تردد واحد من ثم يحدث الرنين .. لا أذكر متى تلقينا فى المدرسة موضوع (رنانات هلمهتولتز) ، لكن التجربة تبرهن عن نفسها بشدة هنا .. إن صوت أنفاس الخطيبين المتلاحقة أعلى من مجموع صوت أنفاسهما معًا ..

نظرت لـ (مارثا) ونظرت لى .. نحن مثل عجائز الفرح ، نراقب هذا المشهد لكننا لسنا جزءًا فيه .. هى لا تهتم بى على ما أعتقد ، وأنا متزوج وأخشاها كالجحيم ..

لماذا أخشاها ؟ لا أعرف .. لقد تحول عنقها الطويل النحيل إلى علامة استفهام عملاقة ..

إنها مفيدة .. لا أنكر هذا .. تعرف كل شىء .. لكنى بحاجة إلى تفسير واضح لكل ما مر بها منذ سقطت الطائرة ...

قلت لأقطع انسجام المتحابين :

ـ « ما هى خططنا يا شباب ؟ »

التفت لى (فاسيلى) وقد عاد إلى وعيه ، وقال :

ـ « لا توجد خطط ... لو كنت تفضل أن نواصل الرحيل إلى الشمال بحثًا عن قوة حدود من (بتسوانا) تقبض علينا ، فأنا لست

متحمسًا لهذا .. على الأقـل مـع (البوشـمن) نحـن لـن نضيـع .. هناك ماء وطعام ومأوى وضمان ضد الوحوش .. »

قلت فى غيظ :

ـ « هل ترى أن نظل هنا حتى تقوم الساعة ؟ سيكون منظـرك جميلاً وأنت تنقب عن الماء تحت الأرض بأنبوب .. »

نظرنا جميعًا إلى ما وراءنا .. حيث يقف كوخ البوشـمن وراء الأشجار ، والنسوة يصنعن السهام ، بينما الأطفال العـراة يلعبون ببيض النعام...

حقًا لن نحب حياة البوشمن كثيرًا ...

قالت (مارثا) فى جدية وهى تجلس على الرمال :

ـ « اسمعونى .. لا يمكن أن نحقق شيئًا من دون مخـاطرة .. سوف يكون علينا أن نجـرب الحركة نحـو الشمال .. أعتقد أننـى أعرف الكثير عن (كالاهارى) .. ليس كهؤلاء لكن بما يكفى كـى نظل أحياء إلى أن نقابل وحدات الجيش البتسوانى أو يجدنا فريق بحث ما .. ما رأيكم ؟ »

تبـادلت و(فاسيلى) النظـرات .. هذا هو الاختبـار الصعب حقًا ... كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ هل هذا كمين من نوع ما ؟

لم يكن من الممكن أن نطلب منها الانتحاء حتى نتناقش نحن الثلاثة في شأنها ؛ لذا انتحيت أنا و(فاسيلي) جانبًا .. وعلى الفور صاح :

ـ « بحق الشيطان ! إنها تعبث بنا ! »

قلت له :

ـ « لا داعي لطريقة (بحق الشيطان) الروسية هذه ؛ لأن رحلتنا لا تحتاج إلى المزيد من النحس .. ما أراه أنا هو أنك واهم .. ربما كانت تقدم لنا الحل الوحيد الصحيح .. »

ـ « وماذا تراه أنت ؟ »

ـ « نجرب نصف يوم مع إبقاء عيوننا مفتوحة عليها .. لن تقدر على إيذاء ثلاثة .. »

هز رأسه وراح يدمدم بالسباب الروسي .. عندما يتكلم الشخص بعبارات متلاحقة ووجهه محمر وبصوت خفيض ، فهو لا ينشد إحدى قصائد (بوشكين) .. إنه يسب على الأرجح ..

قلت لها لما عدنا :

ـ « ليكن .. سنتحرك .. وأرى أن يتم ذلك الآن .. »

ـ « الشمس قاسية .. ربما لو انتظرنا الغروب .. »

- « أعتقد أننا سنتحمل الشمس ، لكننا لن نتحمل حالـة فقدان الحيلة التى عرفناها فى ظلام هذه الصحراء . سيكون عليك التفاهم مع (البوشمن) لإمدادنا بالمـاء وبعض الفاكهـة .. لا أعرف مـا يقبلونه ثمنًا لهذه الأشياء .. ربما كانوا كرماء .. »

قالت (مارثا) :

- « ربما . لكن ظروف حياتهم القاسية تجعلهم عمليين جدًا .. سوف يطلبون شيئًا ما .. »

هكذا انتظرنا حتى عاد (مطارد النحل) ومعه ذكر آخر .. كانـا يحملان على الأكتـاف تيتلاً كـاملاً صغير السن مزقتـه السـهام والنصال .. عامة يمشى مسافر البوشمن وعلى كتفه عباءة هى أقرب إلى كيس كبير .. يطلقون على هذا الكيس اسم (كـاروس kaross) ويضعون فيه الطعام وعصا الحفر وربما أطفالهم ..

راحت (مارثا) تتكلم معه مع الكثير من الطرقعات .. حتى بـدا لى كأنها قالت له :

- « / !// ! ! ! ! !// .. »

وهو رد بالعبارة البليغة التالية :

- « / !// ! ! ! ! !/// !// ! ! ! ! !// // !// ! ! ! ! !// // !// ! ! ! ! !// .. »

قالت لى (مارثا) : إنهم ......

فقاطعتها قائلاً :

ـ « نعم .. نعم .. يسمح لنا لكنه يحذرنا من الكابتن (سميث) .. كل هذا مفهوم .. لكن هل يزودنا بماء وطعام ؟ »

ـ « بل يعطينا رمحًا ومدية كذلك .. »

ـ « والمقابل ؟ »

أشارت إلى نظارتى ، وقالت ضاحكة :

ـ « يعتقد أنها تجعل رؤية القنص أفضل .. »

أنا أتخلى عن عويناتى ؟ مستحيل .. إن الجائع أفضل من الكفيف على كل حال .. منذ المدرسة الثانوية وأنا أرى العالم من وراء زجاج النافذة ولا أتصور أن أراه مباشرة ..

هنا نزع (فاسيلى) عويناته ، وقال :

ـ « أعتقد أن حالة بصرى أفضل منك .. سوف أتخلى عنها .. »

تناول البوشمن العوينات ونظر لها فى احترام ، ثم أصدر أوامره للنساء كى يحضرن لنا القليل مما يملكون .. فى هذا المجتمع تعامل النساء مثل الرجال على الأرجح .. رأى لن يروق لأى من جمعيات حقوق المرأة .. البدائية = معاملة النساء كأنهن الند .. التحضر = المرأة تعنى بالبيت والأطفال فقط ..

لكن ضرورات الحياة ـ كما في أى مجتمع من (الصيادين / الجامعين) ـ تحتم أن يكون دور كل من الجنسين محددًا بصرامة .. لابد ممن يصطاد وممن يعد السهام .. لابد ممن يقتل ومن يعد اللحم ..

هكذا حملنا ليس ما نستطيع حمله بل ما استطاع هؤلاء البؤساء التخلى عنه .. عرض أن يعطينا فخذًا من التيتل ، لكن من دون طهى لا قيمة لشىء كهذا ..

سنجرب لمدة نصف يوم ثم نعود إذا قدرنا على العودة ...

وانطلقنا فى رحلتنا نحو الشمال ..

* * *

3ـ المكان الخطأ ..

تمشى (مارثا) فى نشاط وخفة تتقدمنا ..

أسمعها تدندن بصوت خافت عذب .. لا أعرف ما تقول ، فأقترب وأنتظر حتى تنهى غناءها ثم أسألها عن معنى هذا .. فتقول :

ـ « هى أغنية من أغانى البوشمن .. تقول : يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال .. بعدما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟ »

شعرت برهبة ، وسألتها :

ـ « هل البوشمن يملكون هذا الحس المرهف ؟ هذه أفكار عميقة جدًا بالنسبة لهؤلاء البدائيين .. »

قالت وهى ترطب خديها بمنديل مبتل :

ـ « كل حضارة لها عالمها الخاص .. ولا يمكن أن تتعرف هذا العالم من دون أن توغل فيه .. أما لو تعاملت معهم كقردة زيتونية اللون ، لا يمكن أن تفكر فى شىء غير الطعام والشراب ، فهذا شأنك .. »

وواصلنا المشى من جديد ..

* * *

ستا كالافريزللا موريري مي فا ..

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

يا عزيز عيني وانا بدي أروح بلدي ..

ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان ؟

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

بلدي يا بلدي .. و السلطة أخدت ولدي

موريري مي فا ..

يا كالنكا عيني .. وانا نفسي أروح مي فا ..

ستا كالافريزللا أخدت ولدي .. من يخبر الأبدية ؟

* * *

جاء الليل ..

من جديد جلسنا في الظلام في ذلك المعسكر الذي صنعناه في ربع ساعة .. كانت هناك بقعة عالية نوعا أقرب لهضبة رملية .. هناك وهاد من قدور الملح تحيط بها .. هناك عشب كثيف ، لكن لا أشجار

تحجب الرؤية .. البقعة العالية تتيح لك رؤية أى شخص يتحرك عن بعد .. هذا ما قالته (مارثا) الخبيرة بهذه الأمور ..

قمنا بإشعال النار .. هذه المرة كنا متأهبين .. إن البوشمن لديهم علب ثقاب غالبًا مسروقة .. ليس الأمر سهلاً جدًا برغم هذا ، لأنك لابد أن تجد أغصانًا جافة وتحافظ على الوهج إلى أن تسترد النار عافيتها ..

قلت لسيمونيتا الجالسة جوارى :

- « لن أندهش لو قلت لى إن البوشمن يستعملون صبار (الفلوجستين) الذى يحوى كمية هائلة من البنزين والكيروسين .. يكفى أن تضرب ورقة الصبار فى الأرض لتشتعل وتمنحك الضوء والدفء ليلة كاملة .. »

ابتسمت فى حزن .. ابتسامة بدت كأنها تشق تجاعيد وجهها التى تصلبت من الشمس ، وقالت :

- « لن أندهش أنا أيضًا .. لكنى أسمع هذا الكلام الفارغ للمرة الأولى .. »

- « وأنا كذلك .. »

النار تتوهج وحولها نلتقـي .. غربـاء لكننـا متقـاربون جدًا .. لقد جعلتنا المحنة متعارفين منذ قرون ..

قلت لـ (مارثا) وأنا أشير إلى مساحة صحراوية خالية :

ـ « في مثل هذه البقعة رأينـا ذلك الشبح يجر مـا نعتقد أنـه الطيار .. »

هزت رأسها ولم تعلق ..

بعد قليل بدأت الأجفان تثقل .. أنا لا أجد أثرًا للنـوم فـي عينـي لذا سأكون أول الساهرين .. معي الرمح والمدية .. هكذا تنـاثرت ثلاثة أجسـاد مرهقـة مـن حولي ، وتعـالى شخير (سيمونيتا) .. لو كان معي جهاز تسجيل لاندهش الروسي عندما يسمع شخير حبيبته الرقيقة في الصباح ..

كان شـخيرها مزعجًا فعلاً لذا ركلت طرف حذائها بقدمـي ، فتقلبت لتنام على جنبها وانقطع الشخير ..

رحت أرمق النار ..

لا أعتقد أن معاناتنا ستطول .. منذ يومين كنت علـى استعداد أن أقسم لك أننا قد انتهينا .. الآن أعتقد جديًا أننا سننجو .. فقط

فليجدنا ذلك الأحمق الذى يفتش بطائرته أو هؤلاء المخابيل الذين يقطعون (كالاهارى) الآن بحثًا عن متسللين ..

أشعر بالنعاس يتسلل لى .. طيلة حياتى لا أقاوم هذا الشعور .. الإحساس بأن وجهى دافئ وظهرى بارد .. طابور الخبز فى الشتاء فى ذلك الفرن فى (شبرا) .. أقف أمام الفرن المتقد واللهب يكوى وجهى ، بينما البرد القارس خلف ظهرى .. صوت ناعس لأم فى مكان ما من الطابور تحكى لابنتها قصة الشاطر حسن .. الصوت يتسرب لأعصابى .. الصوت والدفء ينوماننى .. إننى ..

ثم رفعت رأسى مذعورًا كأنه كان سيسقط فى هاوية بلا قرار ..

(فاسيلى) ينام كالقتيل على بعد خطوات ..

غريب أمر الظلال فى هذه الرقعة .. أكاد أقسم أن هذا الظل الأسود الصغير يتحرك .. يتحرك جوار كفه المفرودة ..

لكن .. ليس هذا ظلاً .. ليس ظلاً على الإطلاق ..

مشيت فى وضع القرفصاء كما يفعل رجل البوشمن .. لأدقق البصر أكثر ..

نعم . لا شك فى هذا ..

هذا عقرب .. عقرب يزحف وهو يرفع زبانه متأهبًا ..

لا أعتقد أنني سأتحمل هذا الشعور الكريه ، لكن لا وقت للهستيريا .. هكذا رفعت حذائي وهويت به على الكائن البشع .. سكويمش ! كنت أخشى هذا الصوت ! تمنيت لو صدر منه صوت (كراش) ..

ركلت الرمال لأبعده ..

ثم عدت لموضعي السابق ..

هنا ألقيت نظرة على (سيمونيتا) التي نامت على جنبها وكانت قد نزعت حذاءها طلبًا للاسترخاء .. رأيت ظلاً أسود يزحف جوار قدمها العارية !

هل هذا مزاح ؟

ركضت حتى بلغت موضع العقرب فدسته بشراسة وعنف وركلت الرمال .. ثم دست عليها لأدفنه .. وحانت مني نظرة إلى (مارثا) ..

لماذا أنت متيقظة يا (مارثا) ؟ لماذا أنت جالسة تنظرين لي في ثبات ؟

ثمـة ظل أسود يزحـف جـوار وجـه (فاسيلى) .. هنـا فقـدت تماسكى فصرخت فى جنون :

ـ « انهضوااااا ! »

ثم ركضت لأركل هذا العقرب .. ونهـض (فاسيلى) مذعورًا ونهضت (سيمونيتا) .. كان هذا هو الوقت المناسب بـالفعل لأن الرمال كانت تعج بتلك الكائنات .. كلهـا شريرة المنظر متعصبـة لوجهة نظرها ، تتخذ وضعًا قتاليًا ممتازًا ...

ـ « انهضوااااا ! لقد اتخذنـا مصكرنا فى وسط مسـتعمرة عقارب ! »

* * *

4ـ الزمان الخطأ ..

الآن يمكنك بلا عناء أن تتصور الفوضى التى حلت بهذه البقعة الهادئة من (كالاهارى) ..

صراخ .. وثب فى الهواء .. ركض على الرمال .. كانت (سيمونيتا) حافية وهذا لم يجعل الوضع أفضل .. العقارب كانت هناك .. كانت فى كل مكان ..

تخرج من بين الرمال حيث كانت تتبرد من شمس النهار ، وتقبل نحونا ..

« هناك نوعان من العقارب .. نوع سام كهذا والنوع الآخر ذو الذيل الرفيع غير سام .. أنا لم ألق النوع الثانى فى حياتى قط ! ! »

كذا قالت لى (مارثا) عندما كانت صديقتى ..

الآن هى تجثو على ركبتيها وتمد يدها نحو تلك الأشباح ..

الآن هى تقف صائحة :

ـ « لا داعى للحركات العنيفة ! إنها لا تلدغ إلا من يوترها ! »

قولى هذا لسواى .. لقد كان (فاسيلى) نائمًا وبرغم هذا اتخذ العقرب وضعًا هجوميًا ممتازًا يحسده عليه أى مدرب (تايكوندو) فى العالم .. العقارب تلدغ النيام .. من لم يسمع عن قصة مماثلة ؟

الخلاصة أننا جمعنا حاجياتنا فى هستيريا ورحنا نتواثب مبتعدين .. فقط بعد ما ابتعدنا مسافة كافية سمعنا (مارثا) تلحق بنا ..

النار هى الشىء الوحيد الباقى الذى يقول إننا كنا ها هنا .. بعد ما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟

قلت لـ (مارثا) وأنا أركض كاللقلق متواثبًا بين الرمال .. أى ظل أعتبره عقربًا وأتحاشاه :

ـ « كيف اخترت لنا هذا المكان بالذات ؟ المفترض أن خبرتك بالعقارب علمتك الكثير .. »

ـ « ومنذ متى تتخذ العقارب الهضاب مسكنًا لها ؟ »

كان الحلم لا يفارق مخيلتى ..

العقارب .. العقارب فى كل مكان ..

كلها تطلق صوتًا هو مزيج من فحيح واحتكاك .. تتحرك .. تتكاثر .. تغمر الوديان .. وعلينا أن نجتاز هذا السهل ..

الهرب ! لا سبيل للهرب لأن الرمال تعوق الفرار .. العقارب .. سوف تلتف حولك .. وتتسلق ساقك .. سوف تحاول أن تتخلص من بعضها بلا جدوى .. سوف تسحق اثنين فيتسلق سراويلك ثلاثة .. عندها لن تشعر سوى باللدغة .. لدغات .. مئات منها ..

لكن (مارثا) تظهر فى الأفق .. سوف تنقذنا ..

إنها تلبس ثيابًا غريبة تذكرك بالكاهنات الوثنيات .. على صدرها مئات العقارب تتزاحم لكنها لا تؤذيها ، وهى تحمل عصا غريبة الشكل ..

ـ « نعم يا فتيان .. أنا هى ملكة العقارب ! كان عليكم أن تتوقعوا ذلك ! »

تنفجر فى الضحك .. وأنت تغوص بلا انقطاع فى الأرض ...

كنا نركض ونتعثر .. لكننا نبتعد بلا توقف ..

* * *

كنا واقفين الآن نرمق ذلك النهر الذى يلتمع ماؤه فى ضوء النجوم .. نهر فى (كالاهارى) ! هذه أغرب صحراء سمعت

عنها فى حياتى .. لهذا يفضل العلماء ألا يطلقوا على (كالاهارى) اسم (صحراء) بل يسمونها (سافانا جافة) ..

قالت (مارثا) همسًا كأنها تخشى أن تصحو الطبيعة من غفوتها :

ـ « نهر (تشوبى) العملاق .. نحن فى (بتسوانا) فعلاً .. ينبع فى مرتفعات (أنجولا) ويمر عبر كثبان الرمل ويكبر بينما يتدفق شرقًا نحو قريبه نهر (زامبيزى) .. »

ليس هذا هو المهم .. المهم هى تلك العمالقة السود التى تتجه فى تؤدة نحو النهر .. أفيال ! أنا الذى كنت أحسب لا وجود للفيلة هنا ..

نحن نراها بوضوح برغم الظلام وبرغم أننا على بعد مائتى متر من موضعها ..

أخبرتنا (مارثا) أن النهر يستقبل نحو خمسة عشر ألف فيل. تتوجه القطعان الصغيرة إلى ضفتى النهر يوميا لتروى ظمأها. أقرب مصدر للمياه يبعد ثمانين كيلومترًا عن هذا النهر المتدفق ، وهى مسافة يصعب على الفيلة الصغيرة أن تقطعها خصوصا فى الموسم الجاف .

ـ « الفيلة الصغيرة لا يمكنها اسـتعمال خراطيمها لشـرب المـاء . فبوجود أكثر من ألف عضلة فى الخرطوم الصغير ، يحتـاج الفيل الصغير إلى الوقت ليتعلم السيطرة على خرطومـه واستعمالاته المتعددة .. »

أما عن الحياة البرية فلا تسل !

إن هذا النهر مصدر رزق لا ينتهى للمصورين و(ناشـونال جيوجرافيكس) وقناة (ديسكافرى) ..

النسر الأفريقى صياد معروف فى هذه المياه ، وتترصد المئات من هذه النسـور فريسـتها علـى ضفتـى النهـر . وتجـذب آلاف الجواميس إلى النهر لتروى ظمأها من مائه .. تطـير أسـراب طيور النقر التى تتميز بمنقارها الأحمر إما برفقة القطيع وإما تحط على ظهور الجواميس . وهى تتغذى من حشرات القراد التـى تحملها الجواميس ، أو من الدم المتدفق من الجراح أو القروح علـى جسدها .

وماذا عن تلك العمالقة التى تزحف نحو النهر أو تخرج منه ؟

إنها لا تبدو كالأفيال ..

هذه العمالقة هي أفراس النهر .. وهي كائنات مسالمة ما دامت في الماء ، لكنها على البر تتحول إلى كائنات مرعبة كسفاحي أفلام العصابات .. هذه الكائنات شديدة الحرص على منطقتها territorial .. إنها تضع علامات على منطقتها بالطريقة المعتادة للوحوش .. بالبراز .. من يخترق هذه الحدود انتهى أمره على الأرجح ..

تفرز غدد فرس النهر الجلدية سائلا قرنفلي اللون لحماية جلدها الحساس الذي يتأثر بسهولة بسبب أشعة الشمس. لذا كان المستكشفون الأوائل يظنون أن فرس النهر يعرق دما.

كان المشهد مهيبًا وشعرت بالقشعريرة تزحف على عمودي الفقري ..

سبحان الله ..

هذه من المشاهد التي تخفيها أفريقيا الخجول عن عينيك .. فقط في الليالي المقمرة حينما لا يراها أحد تتجه إلى النهر لتكشف عن حسنها الحقيقي الفريد .. ومن أجل مشاهد كهذه أدرك أنني لم أخطئ السبيل عندما تركت كل شيء وجئت هنا .. إن للمرء حياة واحدة ، فمتى يرى مشهدًا كهذا ؟

* * *

لابد أنها كانت الساعة الثالثة صباحًا عندما رأينا الضوء ..

توقفنا وتبادلنا النظرات ..

بالفعل كنا نقف أمام مدق من مدقات الصحراء .. شبه طريق ممهد يتلوى مبتعدًا واعدًا بالأمل ..

على مسافة مائة متر نرى تلك السيارة .. سيارة (لاندروفر) قادمة نحونا ..

تبادلنا النظرات .. هذه هىَ .. لقد نجونا ..

ضوء السيارة ساطع للغاية .. يحدث الكثير من الاعيب الضوء فى عيوننا المرهقة .. ثم توقفت أمامنا .. إنها حكومية .. يمكن القول بلا خطأ كبير إنها تخص حرس الحدود فى بتسوانا ..

رحنا نتواثب ونتقافز .. هلموا يا حمقى ! نحن هنا !

أخيرًا توقفت السيارة ورأينا أن فيها أربعة جنود ســود .. جلدهم يلمع كأنه مدهون بالزيت فى انعكاس كشافات السيارة .. مدججين بالسلاح .. كانوا ينظرون لنا بعيون متسعة متوترة ..

قال (فاسيلى) بالفرنسية ضاحكًا :

- « نحن ضـائعون فى الصحـراء .. لقد سـقطت طائرتنـا فى موضع من (كالاهارى) .. لقد أنقذنا البوشمن .. »

لم يتكلم الرجال .. فقط تبادلوا النظرات وبدا لى هذا غير مريح ..

قالت (سيمونيتا) بدورها :

- « نحن من وحدة (سافارى) الطبية قرب (ديربـان) .. يمكنكم التأكد من هذا .. لابد أن بياناتنا عندكم .. »

هنا قال أكبرهم وأضخمهم وهو يترجل :

- « لا نهتم بهذه القصص .. أنتم متسللون للحدود .. »

فرنسية رديئة جدًا .. خاصة عندمـا تصدر مـن هـذه الحنجـرة الغليظة ..

هذا معروف .. نحن متسللون .. توقعنا هـذا .. سوف تحدث مشكلة قانونية تستمر بضعة أيام ثم ينتهى كل شىء ..

قال (فاسيلى) فى مرح :

- « لكن .. خذونا إلى قيادتكم .. إن السيارة تمـ . .. »

هنا انطلقت الركلة .. حذاء الضابط الأفريقى الثقيل استقر فى معدة (فاسيلى) فطار مترين للخلف .. صحت فى عصبية :

ـ « أنت تبالغ ! قلت لك إنه يمكنك التـ ... »

لكن دبشك البندقية كان ثقيلاً فعلاً .. لقد هوى على مؤخرة رأسى .. سقطت على الأرض وأنا أشعر أننى أصبت بارتجاج .. لو لم تكن هذه الضربة قد أصابتنى بارتجاج فارتجاج المخ لاوجود له ، ويجب حذفه من المراجع الطبية ..

فتحت (سيمونيتا) فمها بدورها فتلقت صفعة بكف غليظة ...

وقف ذلك الضابط أو الآمر فى وسط المجموعة ، ودس يديه فى حزامه ، وقال :

ـ « لدينا أوامر بإطلاق الرصاص فورًا على المتسللين .. »

ثم لمعت أسنانه البيض فى فخر ، وقال :

ـ « سيتم إعدامكم هنا والآن ! »

لا يمكن أن يكون جادًا .. ليس إعدامنا من مصلحة أى طرف ، دعك من أنه سيسبب مشاكل دبلوماسية مرعبة لو انكشف الأمر .. صحيح أنه قادر على أن يدفننا فى الصحراء حيث لن تعرف

(الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان) لكن يظل هذا الحماس غير مفهوم ..

هناك أسباب تجعلنى لا أشعر بحب شديد لـ (بتسوانا) التى لا أعرف عنها أى شىء ..

هؤلاء ليسوا جنودًا .. إنهم أوغاد .. ربما هم جنود فارون أو مرتزقة أو شىء من هذا القبيل .. لكن لماذا قتلنا ؟ نحن لا نملك ما يُسرق سوى بعض بيض النعام ..

هنا فهمت الأمر عندما قال وقد ارتسمت ضحكة الرعاع على وجهه :

- « سنعدم الرجلين ونبقى الفتاتين للاستجواب ! »

* * *

5ـ الشخص الخطأ ..

قال الرجل الذى يبدو أنه قائدهم وهو يشير لواحد منهم ..

قال ؟ بالواقع لم أفهم ما قال لأنه كان يكلمه بلغة وطنية ما ، لكن الإيماءات سهلة التفسير .. أنت يا فلان .. تول أمر الرجلين ..

هكذا وثب أحدهم من السيارة وأخرج مسدسًا من حزامه .. أعرف طابع الخطورة الصبيانى هذا الذى يميز الأفارقة المسلحين .. إنهم يتصرفون بالضبط مثل الصبى الذى يحمل لعبة مسدس .. غرور القوة والتظاهر بالأهمية .. لهذا لا تكاد القارة البائسة تشفى من الحروب الأهلية واشتباك ميليشيات الجنرال فلان مع ميلشيات الجنرال علان ..

أشار لنا بالمسدس كى نتقدم وراء تلة صغيرة من الرمال .. ودارت السيارة حول عجلاتها الأمامية كى تسقط كشافاتها على الموضع المختار ..

« سنعدم الرجلين ونبقى الفتاتين للاستجواب .. » هذا ما يجب أن يقوله .. لكن الشطر الثانى هو الهدف طبعًا وهو سبب قتلنا ..

كنا بعد لا نصدق أننا سنموت هنا والآن .. سوف تكون أسخف ميتة يمكن وصفها ، نحن الذين حسبنا أننا اقتربنا من

الأمل . دعك من أننى لا أطيق فكرة أن أموت وأترك الفتاتين مع هؤلاء الأوغاد ..

ما زلت أشعر أن حياتى سيمفونية لم تكتمل من سيمفونيات الأخ (ليست) .. على الصعيد الدينى أو العلمى أو الثقافى أو العاطفى لم أبلغ ربع ما أردت بعد ، ومن الخسارة الفادحة أن أموت الآن ..

فجأة سمعت الضحكة الأنثوية .. ضحكة رفيعة مليئة بالدلال ..

استدرت لأرى ما هنالك ، فوجدت فى الظلام (مارثا) فى السيارة مع الجنود فعلا .. لم أفهم حرفًا مما تقول لكنهم كانوا مسرورين .. كانت تعبث فى جيوب ستراتهم العسكرية كأنها طفلة منبهرة برؤية شرطى .. تمد يدها لتعبث بياقة هذا أو ذاك ..

لو كانت ساحرة حقًا ، فقد قررت أن تستغل سحرها .. إن الجنود يبدون كالأطفال فى يدها .. لابد أنها تبدى إعجابها بقوتهم ووسامتهم على طريقة الأطفال .. ياى .. هذا مسدس ؟ كيف تحمله ولا تخاف ؟ كيف يعمل ؟ ما نفع هذا الخنجر ؟ ياى .. حاد جدًا .. أنتم شجعان حقًا إذ تحملون أشياء مرعبة كهذه ..

(سيمونيتا) تقف تراقب هذا كله غير مصدقة .. لسان حالها يقول : أيتها الحرباء المخادعة !

على كل حال لن يؤثر هذا فى مصيرنا كثيرًا .. لن يؤثر فى مصير (مارثا) أيضًا ..

أشار لنا الجنـدى فـى احتراف كـى نفرغ مـن الأمـر .. إنجـاز عظيم فعلاً أن يقتل طبيبين أعزلين ..

الظلام وضوء الكشافات ..

سيتم هذا بسرعة .. لا تقلق يا (علاء) .. فى لحظة أنت هنـا تعى كل شىء ، وفجأة أنـت هنـاك تـدرك الحقيقـة وتفتـح مغـاليق الطلسم الكونى .. ترى هل سأرى جثتى من أعلـى كمـا تتخيـل السينما ؟

توارينا وراء الهضبة فلم نعد نرى السيارة .. الجندى يشعل لفافة تبغ ليبدو محترفًا .. ثم يعالج المسدس .. تشيك .. تشاك ..

نظرت إلى (فاسيلى) ونظر لى ..

لقد مررنا بالكثير ، لكن هناك مرة أخيرة دائمًا ..

* * *

سمعنا الطلقة لكنها كانت بعيدة جدًا ..

مستحيل أن تكون طلقة مسدس هذا الجندى ..

هنا بدا الأمر كأنه كابوس .. لقد ظهرت (سيمونيتا) وهى تحمل بندقية آلية .. كان الخرق واضحًا من طريقة حملها كأنهـا تحمـل مكنسة ثقيلة ، لكنها كانت تصوبها نحو الجندى ، وكانت فى حـال لا تصدق من الشراسة والهياج ..

صرخت فينا :

ـ « ابتعدا ! ! »

وضغطت على الزناد لتتطاير عشرات الطلقات حول الرجل المذهول وفى الرمال .. لا تستطيع التحكم نهائيًا فى اتجاه الفوهة ، ورد الفعل يطيرها فى كل اتجاه كأنها بالون يتسرب منه الهواء .. لكن قانون الكثرة يصلح على كل حال .. من بين عشرات الطلقات هناك طلقة واحدة على الأقل أصابت الجندى فى مقتل ..

سقط على الأرض ولفافة التبغ لم تفارق شفتيه ..

هنا فقط ألقت بالبندقية على الأرض وراحت تبكى .. ارتمت بين ذراعى (فاسيلى) وعجزت عن الكلام نهائيًا ..

سألتها فى رعب :

ـ « الآخرون ؟ »

لم ترد ..

هرعت إلى حيث كنا منذ دقائق فرأيت المنظر كأنه واحة هدوء ..

رأيت الجنود الباقين فى السيارة يغطون فى نوم عميق ، وإن التوت وجوههم فى أقنعة مرعبة .. وكان أحدهم يطل بجذعه خارج السيارة والمسدس فى يده .. المسدس الذى سمعنا صوت طلقته ..

دنوت أكثر .. رأيت العقارب تزحف على واحـدة من الجثث .. ثمة عقرب دسته (مارثا) فى ياقة الرجل فلم يضيع وقتًا ..

(مارثا) التى تظاهرت بأنها منبهرة بسحر الجنـود دست لكل منهم عقربًا فـى قفـاه أو جيبـه .. كـانت تحمـل بضعــة عقـارب انتشلتها من المكان الذى بتنا فيه .. لابد أنها وضعتها فى قشـرة بيض نعامة لأننى أراها مهشمة علـى الأرض جـوار السيارة .. أراها بعين الخيال تلف ذراعيهـا حـول عنق الجندى ثم بإصبعين طويلين دقيقين ـ تدربا أعوامًا على فن الإمساك بالعقارب ـ ترفع العقرب فـى الظـلام لتدسـه بيـن ثيـاب الرجل ولحمـه .. الجنـدى يضحـك ويقهقـه .. بينمـا تتركـه لتداعب زميلـه .. لابـد أنهـم لـم يفهموا إلا عندما شعر الثانى باللدغة .. كان هذا هو الوقت الـذى اختطفت فيه (سيمونيتا) البندقية وهرعت لتنجدنا ..

لم أسمع من قبل عن سم عقرب يقتل فى ثوان .. ترى ما نوع هذه العقارب ؟

على أن الموت خـلال ثـوان يختلـف عن المـوت فـورًا .. أحد الجنود أخرج مسدسه وبيد راجفة صـوب علـى (مارثـا) وأطلـق الرصاص ، قبل أن يغيب فى وادى الظلام ..

هناك كانت راقدة على الرمال والدم ينبثق من كتفها بلا توقف ..

ركعت جوارها .. الرمال الحمر تتشرب الدم الأحمر فى نهم ..

كان أول ما فكرت فى قوله سخيفًا للغاية :

ـ « لماذا احتفظت بالعقارب ؟ »

قالت بصوت كالفحيح :

ـ « لم نكن مسلحين .. كنت .. كنت .. أعرف أن هذا سلاح .. سلاح قوى .. جدًا .. »

كانت عيناها تغربان ..

ما معنى هذا ؟ لا أرى إصابة إلا فى كتفها .. هل هى تفعل ذلك بحكم العادة ؟ هل يروق لها مشهد الموت على الرمال بين أصدقاء باكين ؟

قلت لها فى غيظ :

ـ « لماذا قررت أن تموتى ؟ لا أحد يموت بجرح فى كتفه .. »

قالت وشبح ابتسامة يتلاعب على شفتيها :

ـ « تلقيت عدة لدغات .. لا يمكن أن تمسك بعقرب فى الظلام وسط أربعة عقارب أخرى وتنجو .. فقط .. طال الأمر معى لأننى . .. »

(لأننى اعتدت لدغات العقارب) .. هذا ما أرادت قوله .. لابد أن نسبة الأجسام المضادة فى دمها عالية جدًا ..

بعد ما بللت شفتيها .. قالت شيئًا هامسًا في أذني .. لن أقولـه من فضلكم .. اسمحوا لي بهذا ...

ثم شخصت عيناها وكفت عن ممارسة ما يمارسه الأحياء ..

هنا سال الدمع حارًا من عيني ..

وسمعت عويل (سيمونيتا) من وراء ظهري ..

لقد أنقذتنا الفتاة .. أنقذتنا الفتاتان في الواقع ..

أعتقد أننا عندما اتهمنا (مارثا) اتهمنا الشخص الخطأ ..

لكن (مارثا) ماتت قبل أن تعطي تفسيرات كافية لكل شيء .. باسلة شجاعة سريعة البديهة .. لكنها غامضة كذلك ..

* * *

يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنـا علـى الرمـال .. بعدما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنـا مـرة في فجر الزمان ؟

* * *

6ـ ذكريات وطلقات ..

سمع (جورج ملوويكى) عامل الاتصالات الأفريقى صوت محركات الطائرة وهى تنطلق مع ضوء الفجر .. هز كتفيه فى عدم فهم وغمغم :

ـ « يا للحمير ! »

إنه (فان ثورن) المجنون .. الهولندى الأحمق ـ على وزن (الهولندى الطائر) ـ ينطلق للمرة العاشرة على الأقل ليمسح صحراء (كالاهارى) فى موضع قرب (بتسوانا) .. بالذات منطقة قدور الملح فى (تشابونج) ..

لقد صار هذا الروتين معتادًا .. سوف يحلق (فان ثورن) فوق المنطقة عدة مرات ، ثم يعود وهو يمضغ السيجار .. يطلب الإفطار ويطلق السباب الهولندى البذيء جدًا .. ولم يمنع (جورج) نفسه قط من الاعتقاد بأن الغباء يرتبط بالإصرار والمثابرة .. فقط الأذكياء يعرفون عدم جدوى الشيء من أول مرة .. ما الذى تفعله سلحفاة الصحراء عندما تنطح الصخرة يومين متواصلين دون أن تفكر لحظة واحدة فى أن تدور حولها ؟ هذا هو الإصرار والمثابرة كما تفهمهما ..

أما (فان ثورن) فكان يركب طائرته .. الحقيقـة أن (فولفـى) الطيـار كـان صديقًا عزيزًا ، لكنــه كذلك جرب ذات مرة السقوط بالطائرة فى (كالاهارى) .. يذكر جيـدًا ذعره وتخبطـه واختـلاط الاتجاهات .. يذكر الساعات السود التى مضت عليه إلى أن وجـد نقطة شرطة هولندية ..

لن ينسى تلك اللحظات ؛ لذا قرر أنه مـا دام هنـاك أحياء فهـو لن يتركهم .. لن يترك أحدًا يمر بتلك التجربة القاسية ..

منطقة قدور الملح فى (تشابونـج) ..

الأغبياء لم يجدوا مكانًا أفضل ..

كان يقود الطائرة وهو يسترجع كلمـات (هنربيك فـان رايـن) السكير العجوز ..

فى تلك الليلة جلسوا حـول (هنربيك فـان راين) الذى لم يعد يصلـح لشـىء سوى المـوت .. لا توجـد فـى فمـــه سـن واحـدة سليمة ، وقد تلف كبده من الكحول من زمن ..

يومها قال لهم (فان راين) :

ـ « لا يدنون أحدكم من قدور الملـح .. (تشـابونـج) .. أؤكد لكم ذلك .. أنا كنت هناك .. آخر مرة أطير فيها فى حياتى اللعينة .. كنت هناك ورأيتهم فى ضوء الشمس .. هيـاكل هؤلاء البوشـمن ..

عشرة هياكل عظمية ملقاة جنبًا إلى جنب حتى تجففها الشمس .. فلأشنق إن كنت أكذب .. لقد أصابنى الذعر .. تذكرت (سكوتى سميث) على الفور .. أمى كانت تحكى لنا قصته .. مزرعته (ليتلاندشبان) فى (ويندارى) .. كنا نحسبها تطلق الشائعات .. أنتم تعرفون كم يكره الهولنديون الإنجليز .. (سكوتى) أسكتلندى ؟ لا يهم .. بالنسبة لنا لا نعرف الفارق بين إيرلندى وسكوتلندى وبريطانى .. كلهم ملاعين وكلهم ينافسوننا .. »

ثم وضع يده جوار فمه كأنما يكتم صوت الهمس :

ـ « إنه مدفون هنا فى (أبنجتون) .. هل علمتم ذلك ؟ أنا ذهبت إلى هناك .. هل تعرفون ما رأيته ؟ لقد نبش قبره ! ! ! (سكوتى) العجوز لم يعد نائمًا فى قبره .. إنه هناك وسط (كالاهارى) يصطاد البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

* * *

برغمه وجد (فان ثورن) نفسه يردد مقاطع كاملة من المحادثة ، ويضحك مع كلمات العجوز ..

لقد مات (فان راين) .. مات بعد هذه الجلسة بشهر واحد .. كان يحتسى الخمر فى المقصف ثم سقط رأسه على المنضدة ومات ..

عندما يموت المرء بعد ما يقول كلمة ما فإنها تبقى فى ذاكرة الناس أكثر وقت ممكن ، ولقد ظلت كلمات الرجل تتردد فى ذهن (فان ثورن) ..

إنه الآن يحلق فى ضوء الفجر القرمـزى نحـو الشـمال .. مـن ناحية اليسار ظلام دامس أولى .. ثم يتدرج إلى اللون الكحلى فالقرمزى .. أمـا عن يمينـه فيرى الشمس كخط أحمر دموى يتسلل إلى الأفق ، بالطريقة التى تنزف بها الدم تحت الماء .. وكأن الطائرة سمكة قرش شمت رائحة الدم فجاءت مسرعة ..

إن السماء ملكه .. لا أحد يحلق هنا سواه .. أفريقيا كلها ملكه ..

يشعر بالنشوة تتملكه ..

يرفع رأسه للسماء ويصرخ .. يصرخ ...

يدور مرتين ثـم ينخفض أكثر ليرى تـلال (كالاهـارى) التـى مازالت داكنة اللون لم يتضح لونها الأحمر بعد ..

فجأة يرى شيئًا يتحرك وسط الكثبان .. بين قدور الملح ..

هناك مجموعة من أشجار (شوكة الجمـل) وهذا الشـىء يزحف بينها ..

يحاول التدقيق أكثر لكن الظلام لا يسمح بشىء ..

هل هم هنا ؟ هل هو محارب بوشمن ؟

ربما كان هذا (سكوتى سميث) ؟ وضحك فى سره للفكرة ..

لا يمكنه التأكد ولا يمكنه الهبوط ..

على كل حال ليست مهمته البحث عن كل شىء .. مهمته محددة هى العثور على الناجين الخمسة .. لا يمكن القول إن هذا الشبح منهم ..

هكذا ارتفع بالطائرة ..

هنا دوت الطلقة التى ارتجت لها الصحراء ..

لم يفهم فى البداية وحسب أنه خلل فى المحرك ، لكن الطلقة الثانية اصطدمت بقمرة القيادة .. إنه يطلق الرصاص ! هذا المخبول يطلق الرصاص !

ارتفع بالطائرة بسرعة البرق ودار دورة كاملة بحيث صارت الشمس المشرقة عن يساره ، ثم اندفع عائدًا ..

لو أصابت طلقة خزان الوقود فلن تنفجر الطائرة ، لكن من الوارد أن يجد نفسه ماشيًا على قدميه فى (كالاهارى) .. أى أنه سيشارك مصير هؤلاء الذين خرج لإنقاذهم ..

وشعر بخزى ..

النسر المحلق المليء بالزهو ، تحول إلى عصفور مذعور يطارده الصبية ببنادقهم ..

منذ ثوان اعتقد أنه امتلك السماء .. الآن يعرف قدره بالضبط ..

فى سن المراهقة سرق سيارة أبيه وقادها بسرعة جهنمية فى طريق خارج (أمستردام) .. شعر بأنه ملك الطرقات .. شعر بأنه يملك القدر ويسيطر على الأكوان .. فجأة اكتشف أن الفرامل تالفة ! سرعان ما تهاوى ملك الأقدار من عليائه ليصير مجرد صبى مذعور يبكى خوفًا ..فقط عندما تذكر ما سمعه من أبيه عن طريقة (النقل العكسى) وعندما رفع قدمه عن دواسة الوقود نهائيًا .. عندها بدأ يشعر أنه سيطر على كتلة الحديد المجنونة هذه ..

لكن لماذا أطلق على الرصاص ؟ لماذا ؟

* * *

7ـ البحث عن نحلة ..

« .. إنه هناك وسط (كالاهارى) يصطاد البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

« .. إنه هناك وسط (كالاهارى) يصطاد البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

* * *

صار الأمر خطيرًا بحق ..

نحن فعليًا قد انتهكنا حدود (بتسوانا) ومن الواضح أن الأمر لم يمر بسهولة ..

ربما كان هؤلاء الجنود منشقين أو مرتزقة ـ وأحسبهم كذلك ـ لكن من الوارد فعلاً أن نقابل دورية تطلق علينا الرصاص .. دعك من أننا فعليًا قتلنا أربعة من جنودهم .. على الأقل مات أحدهم رميًا بالرصاص .. لا يمكن التظاهر باللطف والرقة وعدم الفهم ..

كنا واقفين قرب السيارة .. وقد قمنا بدفن (مارثا) كيفما اتفق .. لن ندفن الجنود فهذه مشكلة زملائهم .. سوف تجدهم طائرة

هليوكوبتر بسهولة بمجرد أن تنقطع الاتصالات وهذا يعنى أن علينا ألا نضيع ثانية أخرى ..

صحت فى (سيمونيتا) و(فاسيلى) :

ـ « إلى الجنوب الشرقى ! هكذا يمكن أن نعود إلى أسرة البوشمن .. نحن نعرف يقينًا أنهم فى جنوب أفريقيا وأنهم لن يقتربوا من حدود (بتسوانا) .. »

قال (فاسيلى) :

ـ « كل هذا جميل .. لكن هل لديك أمل فى أن نعرف اتجاهنا من دون (مارثا) ومع هذا الظلام ؟ »

قلت وأنا أنظر إلى السماء :

ـ « المشكلة أن أوضاع النجوم مقلوبة .. كل شىء يتصرف بشكل خطأ فى نصف الكرة الأرضية الجنوبى هذا .. حتى البوصلة لا تفيد .. »

قالت (سيمونيتا) بلسمة :

ـ « انظروا هناك ! »

نظرنا حيث أشارت فرأينا خطًا أحمر يجلل الأفق .. كأنه توكيد خطته يد كونية على معالم الصحراء .. إنه الفجر .. لقد اقترب ..

- « هذا هو الشرق .. يمكننا أن نتجه للجنوب الشرقى بسهولة .. »

عندما تواجه الشرق فإن الجنوب يكون عن يمينك والشمال عن يسارك والغرب خلفك .. كتاب علوم الصف الرابع الابتدائى .. على الأقل فى أيامى أنا .. يستحيل أن ينسى المرء شيئًا درسه قبل سن العاشرة .. لهذا أشعر أحيانًا بأن ما بقى لى فعلاً من كل هذا التعليم هو القراءة والكتابة والحسابات البسيطة .. حتى قصار السور التى أقرؤها فى صلاتى تعلمتها فى تلك السن ..

من دون كلمة أخرى مشينا مسرعين ..

الرمال تعوق الحركة لكن حرارة الجو أقرب إلى البرودة مما يتيح لنا الحركة بسهولة ..

* * *

ستا كالافريزللا موريرى مى فا ..

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

يا عزيز عينى وقا بدى أروح بلدى ..

كالنكا .. كالنكا .. كالنكا

بلدى يا بلدى .. و السلطة أخدت ولدى

موريرى مى فا ..

يا كالنكا عينى .. وانا نفسى أروح مى فا ..

ستا كالافريزللا أخدت ولدى ..

* * *

خلا غناؤنا من مقطع .. « ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟ » .. (مارثا) لم تعد معنا .. لقد كانت هنا منذ ساعات ثم محا النسيم الرقيق آثار قدميها على الرمال .. لن تعرف الأبدية أنها كانت هنا ..

كانت رقيقة باسلة .. وماتت بلدغات العقارب لأنها أرادت أن تحمينا ..

لماذا تتباطئون .. ؟

لا وقت للتعب ..

إن طائرات الهليوكوبتر سريعة ولا تتعب .. يكفى أن تحلق واحدة منها فى اتجاهنا ولسوف ترانا فوق الرمال بسهولة ..

لماذا لا تجدنا طائرات النجدة ؟ لأنها لا تعرف عن أى شىء تبحث ولا فى أى اتجاه .. دعك من أنها سريعة لا تسمح بإمعان النظر .. أما طيار الهليوكوبتر فيعرف عن أى شىء يبحث وأين ، ولديه كل الوقت ليمسح الرمال بعينه .. يمكنه أن يهبط متى أراد ..

الآن يصطبغ الجو باللون الأحمر ..

نرى غابة صغيرة من نباتات شوكة الجمل (أكاسيا جيرافا) وشجرة الرعاة البيضاء الجميلة ..

قالت (سيمونيتا) وهى تلهث :

- « لا أهوى التفاؤل ، لكنى أعتقد أننا نقترب إن لم نكن فى جنوب أفريقيا فعلاً .. نبات (أكاسيا جيرافا) يوجد فى الجنوب أكثر .. »

قلت لها وأنا ألهث أكثر منها :

- « هذا مطمئن ، لكنى أقترح أن نواصل المشى للمزيد من اليقين .. »

* * *

عندما ارتفعت الشمس عرفنا أننا يقينًا فى (كالاهارى) التى عرفناها ..

الصحراء الحمراء القاسية .. الحرارة .. الجفـاف .. لم تعد هناك أنهار تستحم فيها الفيلة فى منتصف الليل .. لـم تعد هنـاك جنات من نبات شوكة الجمل ..

هذه النقطة تبدو لى مألوفة كأننى دخلت الفيلم فى هذا المشـهد بالذات ..

يبدو أننا عدنا لنقطة البداية ..

فى المرة الأولى أنقذتنا نحلة ربط بها الريش .. تـرى كم من الوقت يجب أن ننتظر حتى نرى نحلة أخرى ؟

* * *

8ـ مهمـة ليليـة ..

نعود الآن بضع ساعات إلى الوراء ..

نعود إلى كوخ (البوشمن) الجديد الذى غادرناه نحن ..

ليس عند (البوشمن) طقوس تنصيب للرجولة .. أنت تعرف أن كل القبائل البدائية لديها طقوس رجولة تعلن بها أن الفتى المراهق صار رجلاً .. لكن هذه ليست من عادات البوشمن ..

لهذا كان (توى) الصغير بحاجة إلى إثبات نفسه ..

كان يقف فى الكوخ ويأتى بحركات توحى بالقتال .. ثم يسرق واحدة من حراب الرجال الكبار ويتظاهر بأنه يصطاد فيلاً .. الخلاصة أنه كان يمارس كل سخافات الصبية عندنا ..

عندما رحل الغربيون ، وعندما جاء الليل ، كان عليه أن يبيت فى الكوخ مع الأطفال .. (توى) الكبير يقف فى الخارج يراقب الصحراء كما يحدث فى كل ليلة ..

هذه هى اللحظة التى شعر فيها بأن دم الشباب يغلى فى عروقه .. من أجل لحظة كهذه يقلب الشباب سيارات آبائهم وهم يتسابقون بسرعة جنونية .. ومن أجلها يقف الشاب عندنا على رصيف محطة القطار يثرثر ساعة مع زميله ، فإذا تحرك القطار

وأسرع قرر أن الوقت قد حان للوثب فيـه .. مـن ثـم تـنزلق يـده ويسقط تحته ..

الإحساس بالفتوة .. الدمـاء التـى تغلـى .. هـذا هـو مـا يدفعـه للتواثب والصراخ .. دعك من أنه أكبر طفل فـى الأسرة .. لكنـه لم يعد كذلك .. غدًا سوف يسمحون لـه بأشياء أخرى أهم من اصطياد الضفادع المليئة بالماء ..

هكذا انتظر حتى حل الظلام وتعـالى غطيط النسوة والأطفـال . تسلل من الكوخ ..

فقط رأى بطرف عينه (توى) الكبير يقف خارج الكوخ وقد ثنى ركبته ليريح كف قدمه على ساقه الأخرى .. الوقفة المعتادة للبوشمن ..

الظـلام دامـس والبوشـمن خفيفـو الحركـة .. لا أحد يمكـن أن يخدع بوشمن سوى بوشمن آخر ..

لهذا لم يجد صعوبة فى الابتعاد عن الكوخ ..

راح يتدحرج فوق الرمال البـاردة المظلمـة .. يتدحـرج مبتعدًا عن موضع الكوخ .. لقد ابتعد كثـيرًا جدًا .. هنـاك أيكـة صغيرة من أشجار الرعاة .. توغل وسط الأشـجار وراح يسدد الطعنـات بالرمح لخصوم وهميين ..

هيه .. هيه .. خذ ! خذ !

البوشمن مسالمون لكن ليس هو .. إنه يعرف كيف يقاتل ..

ولكن ..

فجأة شعر بأن ساقه لا تحمله ..

ما السبب يا ترى ؟

* * *

عندما لمست أنامله الرمال المبتلة أدرك من لزوجتها ودفئها أن هذا دم ..

أصابه الهلع وتحسس ساقه أعلى قليلاً .. إنها تنزف .. يرى ذلك الثقب القبيح فى منتصف فخذه .. هناك من أطلق عليه النار على طريقة البيض فى القتل .. تلك المواسير التى تنفث النار .. من فعل ذلك ؟

لماذا لم يشعر بأى ألم ؟

راح يزحف على أربع خارجًا من الأيكة وسط الظلام الدامس .. هنا رأى القدمين ..

الكابتن (سميث) ! الكابتن (سميث) الشيطان الذى اعتاد الكبار أن يخيفوه به !

(هارا) غاضب منه .. (هارا) غاضب منه ..

يرفع رأسه ليرى ذلك الأوروبى الذى يلبس ثيابًا خاكية ممزقة وفى يده بندقيــة .. هو شىء مشوه بلا وجه تقريبًا .. يبرز نصف الجمجمة .. اليد القابضة على السلاح أيضًا لم تكن على ما يرام .. كانت عظمية تمامًا .. عيناه تشتعلان كجمرتين من نار ...

كان ينظر له من أعلى ..

وبيد قاسية أمسك برأسه .. كانت تفوح من يده رائحة البارود ..

كان (توى) الآن فى مرحلة البكاء .. الآن فقط تذكر أنه لم يزل طفلاً ..

سوف يسمع (توى) الكبير الطلقة .. سوف يهرع ليبحث عن مصدرها لكنه لن يجد شيئًا كما فى كل مرة .. وسوف تنقل الأسرة معسكرها مرة أخرى ..

لكنه لن يكون هنا ..

إن ما يحمله كابتن (سميث) هو نصل .. نصل طويل جدًا .. وهو يمسك برأسه .. إذن ...

* * *

فى الساعة التالية كان لدى كابتن (سميث) عمل كثير ..

لقد جر الجثة مبتعدًا .. مشى كثيرًا جدًا حتى بلغ ذلك الموضع البعيد وسط قدور الملح ..

إن الليل يجعل الرمال باردة ، لكنه يعرف أن الشمس ستسطع بعد قليل ، ولسوف تتحول الرمال إلى محمصة حقيقية ..

ألقى بجثة الفتى ، ثم بدأ يمارس العمل الرهيب الذى قام به عشرات المرات من قبل ..

إن الكواسر وبنات آوى يمكن أن تؤدى هذا العمل بشكل أفضل ، لكنه بحاجة إلى التمرين ..

سوف يصلح هذا المكان ليحمص فيه المزيد من الهياكل العظمية فيما بعد .. إنه مولع بترك هذه الهياكل متجاورة ، فهذا يجعل المشهد رهيبًا ..

فى الظلام يتصاعد الصوت المقزز .. شليك .. شلاك .. شلوك ..

أشعل بعض النيران لتجعل الرؤية أفضل وراح يواصل عمله ..

كانت دماء الفجر تغمر الأفق الشرقى عندما انتهى من مهمته ، وبالفعل كانت بعض الجوارح تحوم فى الجو وقد لمحت الوليمة عن بعد ..

سوف يعود الآن ..

من الواضح أنه لا جهة تهتم بهؤلاء البوشمن .. لقد صار يقوم بهذا العمل كل ليلة تقريبًا وبرغم هذا لم يتنبه أحد .. ولم يلاحقه أحد ..

البوشمن لن يجسروا على ملاحقته .. هو يعرف هذا يقينًا ..

إنهم يجيدون اقتفاء الأثر ، لكنهم يعرفون جيدًا من هو الكابتن (سميث) ..

سمع صوت الطائرة ..

رفع رأسه ليلمح ذلك الطائر الجارح أزرق اللون يطير نحو الشمال ..

إنه يدور دورة واسعة .. واضح أنه يلقى نظرة عليه ..

لقد رآه .. هذا أكيد ..

تناول بندقيته الملقاة على الأرض وأحكم التصويب .. لا يتوقع أن تبلغ الرصاصة هذا المدى لكن ربما بشيء من الحظ يمكن أن .. إن الطائرة منخفضة على كل حال ...

أطلق رصاصته الأولى فالثانية ..

فى هذا القفر لا تصدر الطلقات صوت (بوم) لكنها تبدو كصفير من فم عملاق .. صفير يتلوه ألف صفير بفعل الصدى ..

لقد تلقى الأحمق الرسالة ..

إنه يبتعد ..

وعبر الصحراء الصامتة الخالية ترددت ضحكاته ، فرددتها الجوارح ..

* * *

9ـ فتاة ثانية ..

اسمها (نتومبي فوثي)...

بالنسبة لنا يبدو هذا مجرد اسم أفريقي صعب ، لكنك يجب أن تكون من جنوب أفريقيا كي تميز رنين الزولـو الواضـح فـي هذا الاسم .. معنى الاسم يحمل خيبة الأمـل التـي لاقتهـا طيلـة حياتهـا .. إن معناه هو (إنها فتاة ثانية !) .. واضح طبعًا أنـه اسم يطلقـه الأب على فتاة رزق بها بينما كان يأمل أن يرزق بولد ..

لهذا عاشت (نتومبي فوثي) حياة جديرة باسمها .. لـم تشـعر قط أن هناك من يريدها ..

في سن السادسة عشرة جاء ذلك الرجل الأبيض ليطلبهـا مـن أبيها .. إنه رجل أسكتلندي .. هذا ما عرفته فيما بعد كما عرفـت الكثير مـن لغتـه .. بالنسبة للزولو هـي إهانـة أن تـتزوج ابنتـك واحدًا ليس من الزولو ، لكن أباها قبل .. أي أنـه ألقاهـا للكـلاب بالمعنى الحرفي للكلمة ..

اسـمـه (أرشيبالد لينوكس) .. لا تعـرف عملـه ولا مصـدر رزقه ..

فقط هى امرأته وله أن يأخذها إلى أى مكان ..

ضخم الجثة .. أحمر الوجه .. ملتح .. له عينان زرقاوان تبعثان اللهب ..

إنه يشرب الخمر بإفراط ويضربها كثيرًا جدًا .. كانت معلوماتها عن الرجال هى أنهم يضربون النساء .. هذا كل ما تعرفه ..

فقط عندما يصفو مزاجه كان يخبرها بمزيج من لغة الزولو ولغته الانجليزية أنه (يقدم خدمات لحكومة بتسوانا) .. مرتزق .. هذا هو ما فهمته من الأمر ..

على كل حال كانت تعرف من لوازمه التى فى البيت أنه يمارس عملاً شبه عسكرى .. بندقية .. مسدسات .. خناجر .. وكان يغادر الدار عدة أيام ثم يعود وهو يحمل الكثير من المال ..

لم تكن أسرتها ترحب بها ولا قبيلتها .. هكذا لم يكن فى جعبتها إلا أن تكون زوجة مطيعة ..

اسمها (نتومبى فوثى) ..

هى من هؤلاء الذين جاءوا الحياة كى يتلقوا الركلات ويموتوا فلا يذكرهم أحد .. إنهم كثير .. وهم فى كل ركن من هذا العالم ..

لكن هذه ليست قصتنا ..

* * *

لم يكن (لينوكس) ملاكًا قط فى أية لحظة من حياته .. فقط كان أقل خبالاً .. كان مجرد زوج متوحش .. وهى لم تسمع قط عن زوج غير متوحش ..

منذ عام بدأ الأمر يتغير ..

هل وقع هذا بعد الحادث ؟ ربما ..

القصة كما عرفتها فيما بعد هى أن زوجها كان ثملاً ، وقد جلس فى حانة قذرة فى (ديربان) ، ولعب الميسر مع بعض الفتية السود .. عندما خسر رفض أن يدفع لهم .. قال إنهم سود قذرون وإنه ما كان ليلعب مع حيوانات مثلهم ..

كانت النتيجة هى أنهم أوسعوه ضربًا .. جروه خارج الحانة وركلوه وضربوه ، ثم جاء أحدهم ببطارية سيارة وسكب ما فيها من حمض على الأسكتلندى .. على وجهه ويديه ..

فر الفتية مذعورين وقد أدركوا شناعة ما قاموا به ..

لم يمت زوجها .. لم يفقد عينيه .. لكنه تشوه بشكل مخيف .. لم يكن هذا ليضايقها كثيرًا .. فى قريتها مسنون أصيبوا بالجدرى ولم تعد رؤية وجوههم محببة .. فقط كانت مستعدة كى تمنحه رعايتها وحبها لو أنه تغير ..

بالفعل تغير .. لا أحد يمر بتجربة كهذه ولا يتغير ..

كان متوحشًا فصار مسعورًا .. كان فظًا فصار مجنونًا تمامًا ..

كان أول ما قام به هو أن أخذها إلى صحراء (كالاهارى) .. اتخذ حياته فى كهف هناك .. كهوف (كالاهارى) واسعة تسمح بحياة أسرة ، والطريف أن هذا الكهف بالذات ـ قرب منطقة تشابونج ـ كان مخفر شرطة بريطانيًا فى الماضى .. ربما أوائل القرن العشرين ..

هكذا وجدت أنها تعيش حياة بدت لها ـ وهى من الزولو ـ بدائية جدًا .. تشعل النار بطريقة بدائية ، وتستعمل الماء الذى يجلبه لها من مكان مجهول .. تطهو الصيد الذى يأتى به ..

فى المساء يخرج ليقوم بجولة وهو مدجج بالسلاح النارى والأبيض ، ثم يعود فى الصباح مرهقًا ملطخًا بالدم .. ينام ...

من حين لآخر يقابل عربة لاندروفر تستعمل أحد المدقات القديمة ، لتحمل له ما يلزمه من خمر .. وهو حريص على ألا يعرف أحد موضع هذا الكهف ..

لقد كف عن الكلام نهائيًا .. فقط عيناه ترسلان الشرر طيلة الوقت ..

فى بعض الليالى تخرج من الكهف لتجده واقفًا يصرخ فى لا أحد .. يلوح بذراعيه ويلكم بقبضته الهواء ، ويطلق شتائم بلغته التى لا تعرف أكثرها ..

فإذا شعر بها استدار ونظر لها بعينى النمر .. ويقول :

ـ « إنهم هناك .. ينتظرون كأرانب خائفة .. هل تفهمين هذا ؟ »

ثم يوسعها ضربًا بلا سبب ..

فقط فى إحدى الليالى قال لها :

- « غريبة هى ألعاب الحظ .. طائرة تسقط على بعد مائة متر من موضعى فى الصحراء .. بوف ! كان المشهد مريعًا .. مقدمة الطائرة تنغرس تحت الرمال وتشحط لمسافة مائتى متر .. أنا كنت هناك .. جريت إلى موضع الطائرة واختلست النظر عبر النوافذ .. رأيتهم جميعًا فاقدى الوعى .. راقبت هؤلاء الأوروبيين من مكمنى .. لا أحد يستطيع العثور على (سكوتى سميث) أبدًا .. »

لا تعرف لماذا صار يطلق على نفسه هذا الاسم .. لكنها قبلت حقيقة أن (سكوتى سميث) هو زوجها ..

مسح فمه بعد جرعة سخية من الويسكى ، وقال :

- « راقبتهم يخرجون من الطائرة .. يتكلمون .. رجلان وامرأة .. ثم يعودون للطائرة .. كأنهم يبحثون عن شىء .. بعدها قرروا أن يتبعوا أسرة من (الميركات) .. تصورى الحمقى ! يعتمدون فى النجاة من (كالاهارى) على (الميركات) ! ! لما تواروا اتجهت إلى الطائرة لأرى ما يمكن أن يوجد فى حطامها

من أشياء .. يوف ! لم أعرف أن الطيار الأحمق حـى بـالداخل .. خنزير هولندى مـن (البوير) يحمـل مسدسًا .. أنـا تعـاملت مـع الهولنديين وأكرههم كـالجذام .. كـان مذعـورًا كـــالجحيم ولعلــه حسبنى الشيطان ذاته .. رفع المسدس لكنى ألهبت رأسـه بطلقـة من مسدسى أنا .. وجررت جثته خارج الطائرة .. عـدت للطـائرة .. لـم أجد شيئًا ذا بـال .. هكذا جررت جثـة هـذا الخـنزير عـبر الصحراء بحثًا عن مكان يصلح لـ ... »

ثم تذكر أنه يثرثر أكثر من اللازم ، فنفخ خديه وتجشأ للداخل ، ثم قال :

ـ « لقد قابلت هؤلاء فى تلـك الليلـة .. كـانوا مذعورين وهـم يحدقون فىّ غير مصدقين .. لابد أنهم حسبونى شيطانًا كما فعل الطيار ، وفكرت فـى أن أطلـق عليهـم الرصـاص ثـم قـررت أننـى لا أسعى وراءهم .. سوف تتكفل بهم الصحراء .. هكذا تركتهم فلم يجرؤ واحد منهم على أن يتحرك أو يتبعنـى .. أروع شـىء فـى العـالم هـو أن تكون مرعبًا .. لا أحـد يجسر على الاعتراض .. لا أحد يمنعك من نيل ما تريد .. »

ثم صمت وقد تذكر شيئًا ..

كانت هى تحاول فهم ما يقول .. فاتها كـلام كثير .. علـى كل حال لو أن أستاذ لغة إنجليزية سـمع هذه المحادثـة لفاتـه الكثير كذلك ؛ لأن اللهجة الأسكتلندية مستحيلة الفهم فعلاً ..

صمت زوجها كثيرًا ثم تذكر فجأة ..

وجه لها لكمة فى فكها قذفتها لتضرب جدار الكهف .. وللمـرة الألف سال الدم من فمها ليغرق صدرها ..

وصاح وهو يلوح بالزجاجة الفارغة :

ـ « أيتها القذرة ! لماذا تقومين باستجوابى ؟ لـو لـم أكن بحاجـة إليك لفجرت رأسك هنا والآن .. »

اسمها (نتومبى فوثى)...

معنى اسمها هو (إنها فتاة ثانية !) ..

لهذا كان عليها أن تتحمل قدرها وأن تصمت ..

* * *

10ـ الزوجــة ..

قرص الشمس يعلنها واضحة : أنا لا أتفاوض ولا أتسامح !

قلت لهما وأنا أترنح من فرط الإرهاق :

ـ « من ذلك الأحمق الذى اقترح أن نترك أسرة البوشمن ؟ »

قال (فاسيلى) وهو يضع ذراعه على كتف (سيمونيتا) :

ـ « (مارثا) .. فليرحمها الله .. »

ـ « حسن . كانت فكرة غبية .. لقد فقدناها وأنهكنا قوانا وفقدنا (البوشمن) ضماننا الوحيد كى نبقى أحياء .. »

هنا صاحت (سيمونيتا) فى خطيبها مغتاظة :

ـ « ارفع ذراعك .. أنت لا تسرى عنى بل تزيد الحر سوءًا .. يبدو لى كأن ساعدك فحم مشتعل ! »

اعتذر لها فى خجل .. الحقيقة أننا كنا فى حال سيئة ..

نحن فى مكان فى الشمال الغربى لجنوب أفريقيا .. فى مكان ما من (كالاهارى) ..

لكن ماذا بعد ؟

* * *

فجأة رقدت (سيمونيتا) على الأرض .. لا يوجد ظل شجرة ولا شيء على الإطلاق .. فقط تفرد يديها وذراعها كأنها مصلوبة ، وتنظر إلى السماء وتقول بعينين مغمضتين في وجه محترق تمامًا :

ـ « انتهى الأمر . رحلتي تنتهي هنا .. »

ركلت بعض الرمال في وجهها فلم تتذمر أو تشتم .. الأمر بهذا السوء إذن ..

قلت لها محنقًا :

ـ « أسوأ وقت يقرر فيه المرء أن يموت هو عندما يكون معه مخزون من الماء والطعام .. عندما كنا مجردين من أي عون كنت نشطة كبرغوث .. »

قالت مغمضة العينين :

ـ « ألم تفهما بعد ؟ نحن قد كتب علينا الموت في (كالاهارى) .. ما نفعله هو تملص بين مخالب الموت .. ربما يطول لكن ما هو محتوم محتوم .. تسقط بنا الطائرة فننجو .. فقط لنقابل (سكوتي سميث) فلا يؤذينا .. ثم نضيع فينقذنا البوشمن .. فقط لنقع في قبضة جنود بتسوانيين أوغاد .. نفر منهم لنعود لدائرة الضياع .. نحن لن نخرج من هنا .. »

قال (فاسيلى) وهو يجلس جوارها :

ـ « لن أذهب لأى مكان من دونك .. »

ـ « أنت أحمق .. »

ـ « وأنت حسناء إلى درجة أننى لا أصدق ما أراه .. »

تحسستْ وجهها وضحكت فى مرارة ، وقالت :

ـ « لقد احترق جلدى بالكامل .. لو نجونـا لوجدت لـى أدوارًا ممتازة فى أفلام (الجيالّلو) المرعبة .. »

ومسحت بعينيها الأفق ، ثم هبت صارخة :

ـ « هل تريان ؟ هناك أيها الأحمقان ! هناك . .. »

تبادلت النظرات مع (فاسيلى) .. إما أنه السراب أو أن أعراض زيادة الضغط الأسموزى لخلايا المخ قد بدأت .. سوف نفقد هذه البائسة قريبًا ..

قالت وقد استعادت نشاطها بالكامل :

ـ « هناك .. عند مجموعة الكهوف تلك .. لقد تحرك شىء .. أنا واثقة مما أقول ! »

ـ « ربما كان حيوانًا ما ؟ »

ـ « أو ربما بعض البوشمن ! »

ثم نهضت وراحت تركض فى تلك الاتجاه .. صاح (فاسيلى) :

ـ « احتفظى بقواك أيتها التعسة ! »

لكنها كانت تتعثر فتنهض .. تتعثر فتنهض .. وسط قدور الملح الكثيبة تجرى ونحن وراءها ..

كانت مجموعة الكهوف تقع فى تلة ارتفاعها عشرة أمتار .. حوال أربعة كهوف لها سمت العيون التى تحملق فينا ..

على الأرض وجدت لافتة خشبية دفنتها الرمال فأخرجتها .. كانت عتيقة جدًا وقد فتكت بها عوامل التعرية ، لكنى استطعت أن أقرأ : LICE...

طبعًا لا أحد يضع لافتة للإعلان عن وجود قمل .. أرجح أن اللافتة كانت تقول POLICE .. قرأت فى مكان ما أن أقسام الشرطة البريطانية كانت تتخذ مكانًا لها بعض كهوف (كالاهارى) .. لكن هذا لا يدل على شىء .. نحن نتحدث عن مخفر شرطة كان هنا منذ مائة عام ..

كانت (سيمونيتا) تتسلق التلة فى نشاط .. رشيقة خفيفة جدًا فلا يمكن اللحاق بها ..

صحت فى (فاسيلى) الذى كان أسرع منى :

ـ « الحق بها ! هذا الكهف قد يكون مأوى للثعابين أو أسد (كالاهارى) .. إنها حمقاء ! »

راح يتسلق التلة ولحقت به محــاذرًا أن أسـقط .. إن الصخور بارزة جدًا تسهل عملية التسلق كثيرًا ..

كانت هى الآن فى القمة عند أول الكهوف ..

كانت تصيح :

ـ « هييه ! نحن هنا ! »

فى هذه اللحظة لحقنا بها .. وأمسك (فاسيلى) بســاعدها ليعوق حماسها بعض الشىء .. كانت شبه مجنونة والرمل يتخلل شعرها ، وهى لا تكف عن بصقه طيلة الوقت ..

لم يكن هناك داع للتفتيش لأننا وجدنا المرأة تقف عند مدخل الكهف الثانى ..

امرأة من الزولو كما هو واضح .. تصة جدًا .. قبيحة جدًا .. تلبس ثيابًا أوروبيــة وترمقنا فى ذعر .. تلصق ظهرها بجدار الكهف وترتجف .. كانت تحمل فى يدها وعاء به ثيــاب مبتلــة .. ربة بيت عادية جدًا كانت تمارس الغسيل .. فقط هــى تعيش فى كهف فى (كالاهارى) !

قلت لها بصوت عال :

ـ « ساكوبونًا ! »

لكنها لم ترد ..

قال لها (فاسيلى) :

ـ « نحن ضائعون فى هذه الصحراء .. من أنت ؟ هل تفهمين الإنجليزية ؟ »

نظرت له فى ذعر .. ثم قالت بإنجليزية رديئة جدًا وشفتاها ترتجفان :

ـ « أنا زوجة (سكوتى سميث) ! »

* * *

11ـ بيـت الغـول ..

اسمها (نتومبى فوثى)...

وفى الساعة التالية قدمت لنا الطعام والشراب وحكت لنا بإنجليزيتها الرديئة كل ما تعرفه أنت من الفصل التاسع ..

لم تكن تعرف أكثر .. إنها فعلاً لا تعرف زوجها على الإطلاق ..

الغول .. أين كان وقتئذ ؟ زوجها لم يكن موجودًا .. كان فى إحدى جولاته الغامضة ، لكنها تعرف يقينًا أنه سيرجع .. هذا ذكرنى بقصص الأطفال الغربية .. زوجى هو الغول ... تعالوا يا أطفال أخبئكم منه .. سوف يعود ويزمجر من منخاره : فى فى فو فام .. أشم رائحة رجل إنجليزى ..

لا شك أن هذه الفكرة تبعث رجفة فى العروق .. فعلاً لا أريد أن أنتظر حتى أقابله ..

أما عن الكهف نفسه فبإن بوسعى أن أصفه لك .. إنه واسع فى مساحة قاعة محاضرات صغيرة .. لابد أن يكون واسعًا إذا كنا نتحدث عن قسم للشرطة البريطانية المسيطرة على (كالاهارى) .. كما توقعت كان هناك مخرج آخر ضيق فى نهايته ، لكنه مسدود بباب حديدى ..

هناك فراشان من طراز رخيص .. هناك موقد صغير يعمل بالكيروسين .. هناك مجموعة من الخرائط، ومجموعة صور فوتوغرافية عتيقة .. عتيقة تمت للقرن الماضى .. فى هذه الصور ترى (سكوتى سميث) الحقيقى .. المغامر الذى خلده التاريخ .. هناك صور أحدث للزوج .. صور تحمل طابع السبعينات .. لم يكن جميلاً كالملائكة .. كان مخيفًا لكن ليس كما رأيناه فى تلك الليلة ..

هناك بنادق وخناجر معلقة .. هناك رماح .. هناك صناديق يبدو أنها تحوى مفرقعات أو ذخائر .. كما أن هناك ملفات بالية .. أكوامًا منها .. واضح أنها لعهد كان هذا الكهف فيه مخفر شرطة ..

هناك الكثير من زجاجات الكحول .. صندوق سيجار .. علب ثقاب .. شموع .. هناك برميل ماء ..

أعتقد أن الرجل يملك سيارة أو على اتصال بسيارة ما .. من المستحيل أن ينقل كل هذه الأشياء عبر الصحراء ..

أما الجائزة الكبرى فهى مسدس إشارة مع طلقات .. لا أعرف كيف يعمل لكن لن يكون اكتشاف هذا صعبًا ..

* * *

هكذا جلسنا نتناقش بينما الزوجة التعسة تراقبنا فى رعب .. ثمة شىء مخيف فى هذه المرأة .. لم أعتد أن ألقى إنسانًا مستسلمًا لقدره لهذا الحد ..

قلت لـ (فاسيلى) :

- « نحن لا نعرف تفاصيل أى شىء .. لكن من الواضح أن زوجها هو الذى يفعل هذه الأشياء بالبوشمن .. »

قالت (سيمونيتا) فى لهفة :

- « إذن زوجها هو رجل الرمال .. »

لم أعلق على هذه النقطة برغم أننى أعرف الإجابة الصحيحة .. فتساءل (فاسيلى) :

- « لكن لماذا ؟ »

- « كيف لنا أن نعرف ؟ ربما هو مجنون يعتقد أنه تجسد (سكوتى سميث) أو شىء من هذا القبيل .. على كل حال لقد أحرق السود وجهه وهذا جعله وحشًا مسعورًا يبغى الانتقام .. »

- « لاحظ أن اسمه الأصلى (أرشيبالد لينوكس) .. هل تذكران ما كان اسم (سكوتى سميث) ؟ »

نظرنا له محاولين التذكر ، فقال فخورًا بذاكرته :

ـ « (جورج ليجر لينوكس) .. يمكن بشيء من الخيال أن نتصور أن زوجها هو حفيد الرجل .. لقد قرر أن يحيى تراث جده العظيم .. لقد كان هو الصياد الأخير فى أسرته . .. »

بدورى نظرت للخطيبين متسائلاً :

ـ « هل من أحد يشك الآن فى أنه من قابلنا فى تلك الليلة وحسبناه شبحًا ؟ »

هزّا رأسيهما أن لا ..

ـ « نحن نعرف الآن أنه هو الذى تسلل لحطام الطائرة وهو قاتل (فولفى) الطيار .. لكننا لم نعرف كيف ظفر بـ (مارثا) .. هناك جزء مفقود من لحظة سقوط الطائرة حتى ظهورها عند البوشمن .. »

وساد الصمت ، ثم نهض (فاسيلى) يتفقد الصناديق ..

أطلق صيحة متحمسة .. نهضت لأرى ما وجده فرأيته يحمل مسدس الإشارة .. يا له من أحمق ! يثير غيظى من يكتشف ما شبعنا من اكتشافه منذ زمن .. فجأة يصرخ أحدهم : الشمس ! هذا رائع ! إنها تمدنا بالضوء والدفء !!

نظـرت إلى المرأة .. إننــا نتصرف كأنه لا وجـود لها .. برغم كل شىء هذا هـو بيتهـا وهـذه الأشياء حاجياتهـا .. لا يمكـن أن تأخذ ما تريد ..

نـهضت (سيمونيتا) بدورها تتفقد الصناديق ثم أخرجت لفـائف تذكرك برقائق الألومنيوم التى يلفون فيها الطعام ..

قرأت المكتوب على اللفائف ، ثم قالت :

ـ « هذا نوع من مشـاعل الإشـارة لـدى الجيش البريطـانى .. هذه الرقائق تظل مشتعلة لفترة طويلة إذا لامست النار .. »

قلت لها باسمًا :

ـ « هذا المكان يعطينا أفكارًا رائعة .. »

ومـددت يـدى فـى صنـدوق .. هـذه الأصابع التـى تشـبه أقـلام الرصـاص الغليظـة مكسـوة بالشـحم .. لا يجب أن أكـون عبقريًـا لأفهم أن هذا ديناميت .. التقطت بضعة أصابع منه ودسستها فـى جيبى .. فقط أدعو الله ألا ينفجر فى الشمس .. لم أنس أن آخـذ علبتى ثقاب كذلك ..

قال (فاسيلى) :

ـ « أقتــرح أنْ نأخذ ما نستطيع من سلاح .. إن لم نســتعمله فعلى الأقل نحرمه منه .. »

ـ « هذه فكرة لا بأس بها .. »

دسســت مسدسـين فى حزامى كـأننى محتــرف ، بينمـا أخذ هو بندقية .. (سيمونيتا) الرقيقـة أخذت خنجرًا .. إنها جربت القتل بالســلاح النــارى على كــل حــال ويبدو أنها راغبـة فى التنويع .. هكذا بدا منظرنـا كـالحمير العائدة مــن الحقـل عنـد الغروب ..

كـانت الزوجـة الآن قد تنبهت لعمليـة السلب المنظمـة .. لـذا قررت أن تحتج ..

ـ « لا . لا .. لن تأخذوا أى شىء .. (سكوتى) سوف .. »

قلت لها فى هدوء :

ـ « لا أدرى إن كنت تفهمين كــلامى .. لكن زوجك سفاح ونحن يائسون .. هذه التركيبة تعنــى أننـا سنأخذ مـا نريد مهمـا اعترضت .. »

فجأة دوت الطلقة التى ارتج لها الكهف ..

احتجنا لوقت أطول مـن الـلازم كي نفهم أنها طلقة رصاص وأنها جاءت من الخارج ..

وسمعنا ذلك الصوت الغليظ الشبيه بصوت أسد جريح يصرخ :

- « اخـرجي والثـلاثـة الـذين معـك أيتهـا الكلبـة السـوداء ! لا تنكري شيئاً فآثار أقدامهم واضحة على الرمـال .. لا أحـد يستطيع خداع (سكوتي سميث) .. لا أحد ! »

* * *

12ـ خطط بلهاء ..

من جديد دوت طلقة .. ثم أخرى ..

متى قلت إن الطلقات فى الصحراء لا تبدو كطلقات بل كعويل أو صفير .. يتردد ثم تليه صرخات أخرى هى الصدى .. ؟

إن الرجل يطلق الرصاص على الكهف من الخارج ، وهو يطلق بنهم وجشع كأنه سيتقاضى مالاً إذا أفرغ طلقاته بسرعة .. واضح أن عيار هذه الطلقات غير طبيعى .. واضح كذلك أنه لو خرجت ذبابة من الكهف لظفر بها ..

لوح (فاسيلى) بالبندقية وهرع إلى المدخل ، فجذبته من ذراعه صائحًا بالعربية : (يخرب بيتك !) ، ثم أردفت بالإنجليزية :

ـ « ماذا تفعل أيها المخبول ؟ ! »

طبيب لم يطلق سلاحًا ناريًا فى حياته .. طبيب أعطى عويناته هدية للبوشمن .. يبرز من مكان واضح مكشوف للعيان ، ليبادل قاتلاً محترفًا ذا خبرة عسكرية الطلقات .. قاتلاً لانعرف أين هو .. لو عاش هذا الطبيب أكثر من عشر ثانية فأنا أحمق ..

هنا اندفعت المرأة لمدخل الكهف وهى تقول كلامًـا كثيرًا بلغة الزولو ..

ماذا تقول ؟ لا أعرف .. لكنه على الأرجح من طراز (لا ذنـب لى يا سكوتى .. هم من اقتحم المكان .. لا تطلـق الرصاص) .. لابد أنه شىء من هذا القبيل ..

حاولت أن أعترض طريقها لكنها أزاحتنى جانبًا ..

خرجتْ من الكهف وسمعتها تتكلم ثم دوى الصفير من جديد .. توقفتْ عن الكلام فجأة وبعيـن الخيال رأيتهـا تتدحرج من فوق التلة لتسقط على الرمال وتنزف ..

بالفعل لم يستغرق الأمر أكثر من ربع ثانية ..

لم تكن طلقة واحدة بل طلقتين .. ثلاث .. أربع ..

ونظـرت إلـى الخطيبين فوجـدت (فاسيلى) يدفن وجهه فــى يديه ، و(سيمونيتا) تنظر لى فى ذهول ..

لقد قتل الرجل زوجته .. ومن جديد عادت الطلقات تنهمر على الكهف ..

إنه مخبول تمامًا وفى حالة غير مسبوقة من عدم الاستقرار النفسى ..

لا أعتقد أنه استنفد طلقاته .. لا شك أنه يحشو هذه البندقية خلال ثوان ..

لا يمكن الخروج من هنا ..

* * *

اسمها (نتومبى فوثى)...

ومن الواضح أنه لم تعد هناك فتاة ثانية ..

* * *

هرعت إلى مؤخرة الكهف حيث كان المخرج الثانى .. أخرجت المسدس وفردت ذراعى عن آخرها وأدرت وجهى للجانب الآخر، وانتظرت حتى دوى صوت طلقة أخرى من بندقية (سكوتى)، ثم ضغطت الزناد .. كنت أصوب على الجنزير الغليظ الذى يغلق البوابة ..

فتحت عينى بينما أذناى تصفران بلا انقطاع .. ورائحة البارود تخنق أنفاسى ..

لم يكن الجنزير قد تأثر .. لذا أطلقت عليه من جديد ..

فى هذه المرة تداعى .. وسحبته من موضعه وفتحت البوابة ..

هتفت (سيمونيتا) :

ـ « من أدرانا أنـه ليس بانتظارنـا فـى الجهـة الأخرى ؟ إنـه شيطان .. »

قلت فى نفاد صبر :

ـ « سنقامر بحظنا .. على كل حال طلقاته مستمرة من الجهـة الأخرى حيث المدخل الرئيس .. أعتقد أنه مطمئن إلى أن الكهـف مغلق من هنا .. »

وسرعـان مـا كنـت أخــرج متوقعًا رصــاصــة تنهى قصتــى الصاخبة ..

كنـت أتسلق تلـة صخريـة عاليـة .. بـالطبع (سكوتى) يقــف أسفل الجانب الآخر من التلة .. تسلقت أكثر حتى بلغت موضعًا مستويًا فرقدت مسطحًا أرقب الصحراء من حولى ..

لمست يد كـاحلى فـارتجفت هلعًا .. ثم تبينـت أنــه (فاسيلى) يلحق بى .. بعد هذا جاءت (سيمونيتا) .. لا بأس بهذا الموضـع .. إنه مرتفع فلن يباغتك أحد من أعلى ..

فى حذر زحفت على بطنى حتى اقتربت من الجهة الأخرى للتلة .. من جديد تدوى طلقة ثم طلقة .. الصفير يصم أذنى والرمال تتطاير ..

من موضعى هذا أرى الصحراء تحتى وأرى جثة الزوجة الراقدة وسط الرمال .. لما دققت أكثر رأيت ذلك الرجل الذى يحمل بندقية ويتسلق الصخور كالشيطان .. كان مدججًا بالسلاح الأبيض والنارى .. لكنه كان تحتى .. كان تحت سيطرتى .. غافلاً .. لا يعرف أننى هناك ..

نظرت للمسدس فى يدى .. هذا ليس من أفلام (سيرجيو ليونى) حتى أرديه بطلقة رصاص .. دعك من أننى أسوأ رام عرفته فى حياتى .. سوف تطيش الطلقة ونكشف عن مكاننا الممتاز ..

استدرت إلى (فاسيلى) ، وقلت له همسًا :

ـ « إنه يتسلق إلى الكهف الآن .. لا أضمن النتائج لو أطلقت الرصاص عليه .. أقترح أن نحاول غلق الكهف وهو بداخله .. »

ـ « وكيف ؟ »

أخرجت إصبعی دیناميت وناولته علبة ثقاب ..

ـ « سوف ألقی بإصبع مشتعل فی الكهف من ناحيتی .. وسوف تفعل الشیء ذاته فی مؤخرة الكهف .. أعتقد أن انهيارا سيحدث .. هذا الانهيار سيسجنه بالداخل .. »

هز رأسه فی عدم اقتناع .. هذه الحلول السينمائية قلما تجـدی .. أعرف هذا للأسف ..

قلت له فی توحش :

ـ « هل تجد حلاً آخر ؟ »

لا .. هكذا زحفت علـی بطنـی ممسكًا بالدينـاميت إلـی حيـث صرت أری فتحة الكهف بوضوح .. لا أثر للرجل .. واضـح أنـه دخل الكهف فعلاً ..

هنا سمعت (فاسيلی) يصرخ من ناحيته ..

نهضت لأری ما هنالك ..

وجدته نائمًا علی بطنه يطل فی هلع إلی أسفل ..

نظرت من فوق الحافة لأری ما يراه ..

رأيت (سكوتى سميث) يتسلق متجهًا نحونا من تلك الجهة .. فى الواقع كان على بعد مترين أو ثلاثة من الحافة التى نقف عليها .. فى عينيه نظرة متوحشة مجنونة لا شك فيها ، وقد تكفل وجهه الذائب بجعله يبدو كالشيطان قادمًا ليستلب أرواحنا .. كانت بندقيته على كتفه ، وقد أطبق أسنانه على خنجر كأنه قرصان يتسلق صارى سفينة ..

لقد استنتج خطتنا ودار حول الكهف !

لو لم ننظر أسفلنا لوجدناه فوق رءوسنا فجأة !

* * *

13ـ فلتمر أيها الأحمق ..

كان قريبًا جدًا .. من المستحيل أن أخطاه .. حتى لو كنت أسوأ رام فى العالم وأحسبنى كذلك ..

فيما بعد ذكرونى أن أحكى لكم دعابات الغربيين عن الرجل الذى يفشل فى إصابة بناية بمدفع وهو داخلها ! أو الذى يطلق الرصاص على رأسه فيقتل رجلاً فى أول الشارع .. أنا من هذا الطراز ، لكن هذا ليس الوقت المناسب لو لاحظتم ..

هكذا ضغطت على أسنانى وأحكمت التصويب .. لا مجال للتردد ..

لو كنت مترددًا فعليك أن تتذكر زوجته التى ماتت منذ دقيقة .. تذكر (فولفى) الطيار .. تذكر (مارثا) .. تذكر هياكل البوشمن .. لو ترددت بعد هذا فأنا كائن رخو بلا إرادة ..

دوت الطلقات .. لكنه كان مستمرًا فى التسلق .. طلقة .. طلقتان ..

مع الطلقة الثالثة بدا غير مصدق .. ورأيت الدم ينبجس من ثقب فى جبينه ..

وتخلت مخالبه عن الحافة فتدحرج إلى أسفل ..

(علاء عبد العظيم) يقيم ميزان العدالة بيده للمرة الـ ... لاأذكر كم .. هل هذا من حقه ؟ أعتقد أنه من حقه هنا والآن .. ولو لم يفعل لتحول إلى جثة أخرى .. لتحولنا إلى ثلاث جثث تلتهمها الضباع ..

لو كان هناك سبيل آخر لإقامة العدالة لاتخذته ، لكن الرجل لم يترك لى الخيار .. هذه حالة دفاع مشروع عن النفس ..

إنه يسقط لأسفل .. يسقط .. يسقط .. يرتطم بالحجارة ثم يرتد .. إنه يسقط ..

إنه يتكوم فوق الرمال الحمر وينزف ..

* * *

(سيمونيتا) سقطت على ركبتيها وراحت تؤدى مزيجًا من العويل والبكاء ولطم الخدين .. كل هذا كثير .. كل هذا العنف لا يقدر جهاز عصبى على تحمله ..

أما أنا فارتميت على ظهرى فى وضع المصلوب كما فعلت هى منذ ساعة .. ورحت أحدق فى السماء ..

لقد مات (سكوتى سميث) من جديد ..

مات الصياد الأخير ..

الأخير فى مهنته الغريبة ..

والأخير فى سلالته على الأرجح .. إن آخر السلالة يجن كما هى العادة .. تأمل تاريخ الرومان وسواهم ..

لو كانت هناك مزية لهذا الذى فعلته فهى أن أى (بوشمن) لن يموت قتيلاً بعد اليوم ..

(فاسيلى) أيضًا رقد منهكًا ..

لا أعرف كم مر من الوقت علينا فى هذا الحال ، لكن الشمس لم تعد تحرق عيوننا ووجوهنا كما كانت .. لقد بدت تنحدر نوعًا ..

ريح باردة بدأت تتسلل لنا هناك فوق تلك التلة المرتفعة ..

قالت (سيمونيتا) دون أن تنهض :

ـ « أعتقد أننا سنقيم فى هذا الكهف .. من الآن فصاعدًا . .. »

ـ « ربما يهاجمنا شبح (سكوتى) .. كانت أمى تعتقد أن الأرواح تبقى معنا لفترة بعد الوفاة .. فى حكايات العجائز تتدرج هذه الفترة من 24 ساعة إلى أربعين يومًا .. »

ـ « الشبح البائس لن يتحمل هذا الحر .. »

قلت وأنا أنهض لأول مرة منذ فترة طويلة :

ـ « أولاً : يجب أن ندفن الجثتين .. أعتقد أننا سنجد ما يصلح لهذا فى الكهف .. ثانيًا : لابد من أن نعد عدتنا لليل .. »

وترجلنا من التلة ..

وهكذا رحت و(فاسيلى) نقوم بتلك المهمة الكريهة كما فعلنا مع (مارثا) .. قبران عميقان على قدر ما استطعنا .. جثة فى كل قبر .. طبقة من الرمال الحمراء .. لا أعرف إن كانت حيوانات الصحراء تنبش لهذا العمق ، لكننا فعلنا ما استطعنا ..

فى الوقت ذاته كانت (سيمونيتا) تقص رقائق الألومنيوم الوهاجة هذه كما اتفقنا ..

عندما فرغنا ركعنا على الرمال جوارها ورحنا نعاونها ..

ـ « حذار وإلا نفدت الرقائق بسرعة .. يجب أن نقتصد .. »

ـ « لو اقتصدنا لانتفى الغرض منها .. »

كانت العملية مملة طويلة لكننا انتهينا منها قبل اكتمال الغروب .. قبل أن ترتمى ظلالنا داكنة طويلة على الرمال ..

ورحنا نضع قطعًا من الحجارة لتثبت أطراف التشكيل الذى صنعناه ..

كان عملاً فنيًا عبقريًا لكنك لن تستطيع فهمه إلا لو رأيتـه من طائرة ..

فى اللحظة المناسبة سوف يشتعل طرف الحروف من ثم ينتقل اللهب ليشتعل فـى التشكيل كلـه ، ولسوف يرى الطيار بشـكل واضح نارًا مشتعلة فى ظلام الصحراء تخبره أنه :

SOS

وهـى المعادل اللفظـى لشفرة مورس (ثلاث نقـاط .. ثـلاث شرط .. ثلاث نقاط) التى كـانت السفن الألمانيـة تستعملها لـدى الغرق ، وليست بمعنى (أنقذوا أرواحنـا Save our souls) كمـا يعتقد أكثر النـاس .. بمـا أن أغلـب الطـائرات التى مرت بنـا مرت فجـرًا أو قـرب الغـروب فإن احتمال أن يروا اللهب عالية جـدًا ..

لكن المشكلة هنا هى أن الطائرة ـ لو وجدت ـ لن تحلق فوقنا إلا للحظات ، وهذا الورق لن يشتعل إلا للحظات ..

لهذا صار من الواجب أن ننسق ورديات منتظمة .. هنـاك من يجلس جوار هذا التشكيل ويصغى لصوت الطائرات مستعداً بطلبة ثقاب ، ومن مهامه كذلك أن ينظف الشكل ويزيح عنـه أية رمال تذروها الريح .. بينما يمارس الآخران حياتيهما ..

حياتيهما ؟

فيما بعد اكتشفت أنه لم تعد لنا حياة إلا هذه الرقائق ..

فى الحقيقة صرنا نقضـى أكثر الوقت جوارهـا ننظر للسماء وننتظر ..

سوف يـأتى الطـائر الحديدى من ظلمـات (هيدز) .. سـوف يكون على متنه ذلك الشمالى الأشقر قوى العضلات .. ينظر لنـا من عل ويقـرر أن يهبط لينقذنـا ليحملنـا مثـل الفـالكيرى إلـى (فالهالا) على نغمات (فاجنر) القوية النحاسية ..

أراه بعين الخيـال يرمـق رمـال الصحـراء ويبتسم عارفـا أنــه الموعد المختار .. لا دقيقة قبله ولا ثانية بعده ..

فلتمر أيها الأحمق ! جرب ذلك الآن ..

* * *

SOS - 14

لسبب ما أتذكر كلمات (على محمود طه) فى (الجندول) إذ يقول بصوت (عبد الوهاب) الرخيم: « آه لو كنت معى .. » آه لو كنت يا (برنادت) معى !

تجربة غريبة هى .. غريبة وساحرة أن تقضى حياتك فى كهف وسط صحراء (كالاهارى) .. تمنيت لو كانت زوجتى (برنادت) معى هنا .. ثم أتذكر أن الوقت ليس وقت الرومانسية ، وأننا غرقنا بالدم حتى صار من العسير أن نجف .. هكذا كنت أشعر بأننى مراهق سخيف ..

برغم كل شىء نحن فى وضع ممتاز .. هناك طعام ومأوى .. هناك سلاح ..

أتذكر كلمات (سيمونيتا) فى لحظة قنوطها : « ما نفعله هو تملص بين مخالب الموت .. ربما يطول لكن ما هو محتوم محتوم .. تسقط بنا الطائرة فننجو .. فقط لنقابل (سكوتى سميث) فلا يؤذينا .. ثم نضيع فينقذنا البوشمن .. فقط لنقع فى قبضة جنود بتسوانيين أوغاد .. نفر منهم لنعود لدائرة الضياع .. نحن لن نخرج من هنا .. »

أضيف لما قالته أننا ننجو من الضياع لنقع فى قبضة (سكوتى سميث) .. وننجو من (سكوتى سميث) لنعيش هذه الحياة البدائية

السلحرة فى كهف فى الصحراء .. أنا أعرف يقينًا أن هذا السكوتى سميث كان على اتصال بالعالم الخارجى .. هو ليس (حى بن يقظان) أو (روبنسون كروزو) .. لابد من سيارة أو أشخاص يجلبون له المؤن ، ونحن سنلقى هؤلاء ..

هناك مصيبة قادمة .. لا أعرف ما هى لكنها آتية حتمًا ..

* * *

حياتنا جميلة فعلاً هنا ..

الرجلان يقومان بالاستكشاف وإعداد الكهف ليكون أكثر راحة .. الفتاة تطهو المعلبات التى نجدها .. قراءة المخطوطات فى المساء على ضوء شمعة .. الجلوس فى الصحراء المظلمة الساكنة ليلاً ومراقبة النجوم فى صورتها الأولى كما خلقها الله .. ثم النوم فى الكهف أو على الرمال .. لاحظ أن أحدنا يظل ساهرًا للأبد ..

أعتقد أننا أمضينا يومين أو أكثر ..

لكنى لاحظت أننا نروح ونجىء ثم نعود لذات البقعة .. جوار علامة SOS العملاقة . نرفع عيوننا للسماء وننتظر .. معنى هذا أننا لم نتأقلم بعد لهذه الدرجة .. ما زلنا نفكر فى الشوارع والسيارات والتلفزيون ..

لم أكن أعرف أن اسمه (فان ثورن) .. لقد نسينا الجميع على ما أعتقد .. لكن (فان ثورن) الذى يشبه أبطال القصص المصورة كان كالشعراء الذين تسيطر عليهم فكرة واحدة .. لم يكن ينوى التوقف عن مسح المنطقة ..

هكذا جاء ذلك اليوم الذى بدأت الشمس تنحدر فيــه وراء الكهوف ..

كانت (سيمونيتا) تعد لنا طعام العشاء من بعض الفواكه التــى حصلنا عليها من البوشمن .. وكان (فاسيلى) يدق شيئًا ما على مدخل الكهف ..

نظرت إلى رمال الصحراء حيث يرتمى ظل الكهوف إلى بعيد ..

هنا رأيت ذلك الكائن الذى ملأ قلبى طربًا .. الميركات العزيز .. النمس الذى يقف على ساقيه الخلفيتين متشممًا الهـواء فـى فضول ..أسرة كاملة .. مجموعة من العيون السود التى تجمع بين الوداعة والفضول والوجل تنظر لى ..

أجمل ما فى هذا الكائن أنه لا يقترب منك أبدًا ولا يبتعد .. إنــه الفضول مجسدًا ..

ألقيت نحو تلك الأسرة بقطعة من اللحم المقدد الذى يحتفظ بــه الفقيد (سكوتى) ..

لكنها لم تبال بي كأنني أبله .. رأيت تلك الحيوانات ترفع رءوسها المشرئبة لأعلى أصلاً إلى السماء .. كأنها تصغي لشيء ..

بالفعل هو كذلك ..

محرك طائرة .. محرك طائرة قادم من لا مكان ..

في ذات اللحظة وثب (فاسيلي) من أعلى صارخًا :

ـ « طائرة ! »

وألقت (سيمونيتا) ما بيدها على الرمال ، وصاحت :

ـ « طائرة ! »

ومددت يدًا ترتجف لأشعل الرقائق .. لن تتكرر هذه الفرصة أبدًا فالساعة ساعة وهن ضوء .. الغبشة ستجعل نيراننا عالية جدًا واضحة جدًا ..

يجري اللهب على الرقائق .. بسرعة .. بسرعة ..

يتوهج المعدن .. وعلى مساحة شاسعة من الرمال تبلغ نحو عشرة أمتار عرضًا وستة طولاً اشتعلت الكلمة SOS .. وشعرت بالقشعريرة من روعة ودقة وضخامة ما قمنا به ..

أنقذنا أيها الغبي .. أنقذنا يا أحمق !

مددت يدي إلى حزامي لأنفذ الجزء الثاني من الخطة .. فقط يجب أن يحوم حولنا أولا ..

ظهرت الطائرة أخـيرًا .. نراهـا بوضـوح .. كشـافاتها مضـاءة فى هذه الساعة السوداء التى يتداخل فيها الإبصار مع العمى ..

الفالكيرى آت من أجلنا نحن ..

لن يفشل .. سيرانا .. أعرف هذا .. أؤمن به ..

يا رب !

(سيمونيتا) تبتهل بعبارات ذات طابع كاثوليكى واضح ، بينمـا (فاسيلى) ـ الذى قال إنه ملحد مرارًا ـ يردد أدعية بالروسية .. لا أعرف ما يقول لكنه بالتأكيد يبتهل لله أن يرانا هذا الطيار ..

الطائرة تدور .. تدور .. ليس لهذا سـوى معنـى واحد .. لقد رآنا !

تتوارى الطائرة وراء خط الكهوف كأنها دخلت قرص الشـمس لتنتحر فيه ، ثم هو ذا ظلها يظهر على رمال الصحراء من جديد ..

هنا قررت أن أنهى الشك باليقين ..

رفعت مسدس الإشارة وأطلقت .. ارتفعت الطلقة المشتعلة فـى السماء لترسم ذلك القوس الخالد وتوهجت الرمـال ووجوهنـا ثـم تلاشت ..

الآن تحوم الطائرة من جديد ..

لا يوجد مكان للهبوط ولو كانت طائرة هليوكوبتر لانتهت القصة هنا ..

لكنه بالتأكيد يفكر فيما يجب عمله ..

بعد قليل توارت الطائرة وانطفأت النيران .. ساد الصمت وفر (الميركات) ..

لكن رسالتنا كانت قد بلغت هدفها ..

* * *

15ـ فان ثــورن ..

كما توقعنا لم يظهر أحد إلا عند الفجر ..

يمكنهم التنقيب عنا بالكشافات فى الظلام ، لكن ما داعى ذلك ؟ إننا استطعنا البقاء أحياء حتى هذه اللحظة فلا يمنع شىء من أن نبقى أحياء ليلة أخرى ..

كانت ليلة بـاردة وقد نمنـا جميعًا فـى الكهـف ، وكنـت أصلـى الفجر عندما سمعت صوت الهليوكوبتر تحلق فوق المكان ..

أيقظت الاثنين بسرعة وخرجنـا مسرعين ، إلـى حيث كـانت الهليوكوبتر تنحدر إلى الأرض وهى تدور حول نفسـها بتلك الطريقـة الغريبة التـى لا أعرف أن الهليوكوبتر تمارسـها إلا لـدى إصابـة مروحة الذيل .. يبدو أنه نوع من (الحرفنـة) أو الإبهار .. لا أعرف بالضبط ..

عاصفة رمال جائحة تهب فى الصحراء بفعل المراوح وتجعل الرؤية مستحيلة ..

حمينا عيوننا بأيدينا .. بينما راح الوحش المعدنى يهمد أخيرًا ..

ومن الطائرة ترجل (فان ثورن) .. أنتم تعرفونه من قبل لذا لن أجرى التعارف ..

كما قلت كان كتلة من العضلات وله ذقن مربعة مشقوقة ممتازة لتلقى اللكمات .. عندما يرغبون فى المرة القادمة فى شخص يؤدى أدوار باتمان أو سوبرمان فعليهم أن يتذكروا هذا الرجل .. طبعًا بعد صبغ رأسه الهولندى الأشقر باللون الأسود ..

كان يتكلم تلك الإنجليزية اللعينة التى يتكلمها الهولنديون والتى تخلو من أى حرف (سين) أو (ذال) .. فقط هناك الكثير من (الشين) و(الجيم) غير المعطشة ..

ـ « أنا الطيار (فان ثورن) من (أبنجتون) .. أنتم أطباء تلك الوحدة .. نسيت أشمها .. »

قال (فاسيلى) وهو يصافحه :

ـ « (سافارى) .. »

ـ « شافارى .. آه .. أين (فولفى) ؟ »

تبادلنا النظرات .. هذه هى لحظة الحقيقة ..

(فولفى) مـات أيهـا الرجل الشـجاع .. نعتقـد أن (سـكوتي سميث) قتله ..

بدت عليه الحيرة وعدم الفهم .. استدار ليقول أمرًا ما للطيـار الذى جلس فى الطـائرة .. طيـار من الزولـو كمـا هـو واضـح .. وقال لنا مفسرًا :

- « ليست هذه حملة إنقاذ منظمة .. لا أحد يعرف أننى هنا .. هذه طـائرة طلبتهـا علـى مسئوليتى مـن (أبنجتـون) .. الطيـار أفريقى يدعى (نيلـيزيوى) وهــو صــديقى .. كلهم يعتقد أنكم هلكتم .. »

ثم وضـع ذراعًا على كتف (فاسيلى) وذراعـًا علــى كتـف (سيمونيتا) ، وقال :

- « هلا أخذتمونى إلى بيتكم ؟ أريد أن أسمع كل هذا بهدوء .. »

هكذا تركنا الطائرة واتجهنا إلى الكهف ..

* * *

منذ اللحظة الأولى تصرف (فان ثورن) كصاحب بيت ..

اتجه إلى الصناديق الموضوعة وفتح واحدًا منها .. أخرج زجاجة ويسكى ـ لم أعرف أنا نفسى أن هناك ويسكى عند (سكوتى سميث) ـ وفتحها وصب لنفسه بعضها .. ثم جلس إلى المنضدة الوحيدة هنا ..

هكذا حكى لنا وحكينا له كل شىء .. ومنه عرفنا قصة حملاته المستمرة وبحثه عنا ..

قال لنا :

ـ « إن الطريقة التى أعلنتم بها عن أنفسكم عبقرية .. يجب أن تدخل كتب سلاح الإشارة .. كان مشهد علامة SOS واضحًا على ارتفاع ساحق .. لابد من أعمى يقود الطائرة كى لا يراها .. »

سألته (سيمونيتا) التى ظلت صامتة حتى تلك اللحظة :

ـ « ما رأيك فى قصة (أرشيبالد لينوكس)) هذه ؟ »

قال وهو يحك شعره الأشقر :

ـ « لا أستطيع الحكم .. هذا مخبول اعتبر نفسه (سكوتى سميث) .. لا أعرفه لكنى أعرف أن كل البريطانيين مجانين لو طلبتم رأيى الذى لن يخلو من التعصب العرقى طبعًا .. أى هولندى فى جنوب أفريقيا يصاب بالحساسية لدى سماع لفظة

(بريطانى) .. سوف نفهم الكثير من هذه الأوراق .. لقد انتهى دوركم فى القصة وجاء دور الشرطة .. »

قلت له مشيرًا إلى صندوق على الأرض جوار الجدار :

ـ « كل أوراقه هنا .. هناك العديد من الصور الفوتوغرافية كذلك .. »

ـ « جميل .. جميل .. »

ونهض ممسكًا بالزجاجة ليكملها فى الطريق ، وقال :

ـ « سوف نحملكم إلى (أبنجتون) .. ونجد طريقة تعيدكم إلى وحدة .. نسيت اسمها .. »

ـ « سافارى .. »

ـ « نعم .. نعم .. (شافارى) .. »

هنا وضعت (سيمونيتا) يديها فى خاصرتها ، وقالت فى شىء من تحدٍ :

ـ « سيد (فان ثورن) .. أنا ذكرت اسم (أرشيبالد لينوكس) .. وعرفت أنت على الفور أننا نتحدث عن (سكوتى سميث) .. نحن لم نذكر الاسم الأول قط .. هل لديك تفسير ؟ »

هذه هى لحظة الحقيقة !

تبادلت ومن معى النظرات .. كيف لم ألحظ هذا ؟

نظرت إلى (سيمونيتا) ، وقلت :

ـ « لم يسمع الاسم جيدًا يا (سيمونيتا) .. أنا نفسى لم أنتبه لهذا .. عندما أتكلم عن (مايكل جاكسون) وهزيمته فى حرب فيتنام ، فإن عقلك تلقائيًا يعرف أن (جاكسون) يعنى (نيكسون) .. هناك نوع من (التصحيح الذاتى اللاشعورى) فى آذاننا .. »

قالت فى انتصار :

ـ « ليس عندما تكون عندى صورة (مايكل جاكسون) مع السيد (فان ثورن) ! »

نظرنا لها فى غباء ، فأردفت :

ـ « النساء تلاحظ خيرًا من الرجال بكثير .. ضمن الصور الخاصة بـ (سكوتى سميث) الجديد كانت صورة له مع طيار هولندى وسيم يقفان أمام طائرة .. هى الطائرة ذاتها .. والطيار هو السيد (فان ثورن) نفسه ! »

وأشارت إلى ألبوم صور ملقى بإهمال فوق الصناديق ..

فى هذه اللحظة حدث ما نخشاه ..

إن النساء دقيقات الملاحظة لكنهن مندفعـات .. كم من امرأة ورطت زوجها فى مشاجرة مع بطـل مصـارعة ، ثم وقفت تولـول وتصرخ بينما زوجها يتحول إلى كفتة .. عندمـا تلقين تهديداتـك يا (سيمونيتا) كـان عليك أن تفعلى هـذا فـى لحظـة نكـون فيها متأهبين .. نكون فيها الأقوى ..

الآن يخرج السيد (فـان ثورن) مـن سترته الجلديـة مسدسًا عملاقًا يصوبه لنا .. ويقول :

ـ « أعتقد أننى مدين لكم ببعض التفسيرات ! »

* * *

16ـ الشريكـان ..

أخرج (فان ثورن) سيجارًا أشعله .. ثم جلس على أحد الصناديق ، وقال :

ـ « يجب أولاً أن أذكر أننى كنت أبحث عنكم لإنقاذكم .. هذه حقيقة .. إن (فولفى) كان صديقى وأنا لم أتحمل لحظة أن يكون هناك أحياء ضلوا طريقهم فى هذه الصحراء اللعينة .. أنا أعرفها وأعرف أن فرصة النجاة معدومة .. هذه نقطة .. »

ثم نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

ـ « الجزء الثانى من القصة صحيح تمامًا .. أنا و(أرشيبالد لينوكس) شريكان .. يمكن القول إننا كنا من المرتزقة .. ثم احترق وجهه وجن تمامًا ، وتصور أنه تتلبسه روح جده (سكوتى سميث) .. لقد سرق جثمانه من قبره وراح يطارد البوشمن فى صحارى كالاهارى .. كان هذا عملاً قذرًا خاصة أننا توقفنا عنه منذ زمن .. »

سألته (سيمونيتا) :

ـ « هل يعنى هذا أنكما كنتما تقتلان البوشمن من أجل الحصول على الهياكل العظمية ؟ »

ـ « ليس بالضبط .. »

* * *

قال (فان ثورن) :

ـ « حتى العام 1950 لم يعبأ أحد بالبوشمن ولم يسمع عنهـم كثيرون ، حتى صدر كتاب للمؤلف الجنوب أفريقى (فـان در بوست) اسـمه (عالم كالاهارى المفقود) ، وقد تحول لمسلسل تلفزيونى شـهير .. هكذا عرف كل العالم من هم البوشمن .. هؤلاء القوم مشكلة حقيقية .. إن الحضـارة لم تعد تقبل وجود هؤلاء ، وأنتم تعرفون كيف يهينهم الجميع .. أحيانًا هم البوشمن (أى رجال الأحراش) وأحيانًا هم سان (أى الذين لا يملكون) .. حتى كلمـة (باساروا Basarwa) التى يقبلها بعـض البوشـمن يعتبرها أكثرهم إهانة ..

« فى هذا الكثير من التعصب والغباء بلا شك .. أنتم أطباء وستفهمون ما أقول بشكل أفضل .. هناك نوع من الجينـات على الكروموسوم Y الخاص بهؤلاء القوم ، ينتقل نقيًا عبر الأجيال .. هذا الجين موجود لدى كل أجناس الأرض وإن كانت أنقى صورة لـه لـدى البوشمن .. هل تعرفون معنى هذا ؟ معناه أنـه مـن البوشمن جاءت كل أجناس الأرض .. إنهم أجدادك بشـكل أو بآخر ..

« برغم هذا كان صيد البوشمن نشاطًا رياضيًا مسموحًا به .. وفى عام 1870 انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة

الصيد .. آخر رخصة تسمح بصيد البوشمن أصدرتها ناميبيا عام 1936 .. بعد هذا صار تجويعهم أقرب إلى التحضر ، وأنتم تعرفون أن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف ..

« في التسعينات من القرن العشرين ، راحت حكومة بتسوانا تحاول نقل هؤلاء من المحميات التي بنتها لهم في قلب كالاهاري ، وهي مخالفة دستورية صريحة لأن القانون يكفل لهم المعاملة كمواطنين بتسوانيين .. المشكلة هي أن أماكن إقامة البوشمن الحالية تصلح مزارات سياحية ممتازة .. وهي مهمة للتنقيب عن الماس .. إن ثروة من الماس توجد في هذه المناطق ، ومن العسير أن تضحي بها من أجل حفنة من العراة ..

« عومل البوشمن معاملة قاسية بين طرد بقوات الجيش والتهديد .. إلخ .. تم نسف مضخة الماء الرئيسة التي ترويهم ومنعوا من الصيد والجمع .. هذا هو الوقت الذي وجدت فيه أطراف معينة أنها بحاجة لنشاط المرتزقة .. كنت أنا من المختارين وكان (لينوكس) .. وقد أطلقوا لنا حرية التصرف ؛ لذا قررنا أن نعيد لأذهان هؤلاء البدائيين أسطورة (سكوتي سميث) .. صاحب الفكرة كان حفيده .. قمنا ببضع عمليات محدودة فردية .. بضعة هياكل يجدها هؤلاء قرب أكواخهم كان لها تأثير السحر ، وقد أخليت مساحات شاسعة من أرضهم خوفاً من شبح الكابتن سميث ..

« اليوم يعيش أكثر البوشـمن فـى معسكرات محـاصرة ، وهـم لا يملكون مصدر رزق سوى بيع زوجـاتهم .. هنـاك مـن يفرون من هذه المعسكرات إلى (كالاهارى) ثانية ..

« فـى العام 2006 صـدر حكم من المحكمــة يقـول إن نقـل البوشمن من محمياتهم الأصلية غير قانونى(*) .. لكـن الحكم لـم يلزم الحكومة البتسوانية بشـىء .. »

سألته عند هذه النقطة :

ـ « متى نشأ الخلاف بينك و(لينوكس) ؟ »

قال (فان ثورن) :

ـ « هذه كانت حقبة قذرة من حياتنا .. وقد اعتزلت هذا العمل وصرت طيارًا أجيرًا .. لكن المخبول (لينوكس) جـن تمامًـا بعد ما احترق وجهه .. اختفى عن الأنظار مع أوراقه وصوره ، وبدأ يقتل البوشمن فى كالاهارى ويسلخهم إلى آخر هذا الهراء .. سمعت القصة مرارًا وكنت أعرف جيدًا أنه هو المسئول وأنـه يبالغ ويجذب الأنظار لنا .. اقتل اثنيـن أو ثلاثـة فلـن يهتـم أحد .. اقتل واحدًا يوميًا ولسوف تجد الجيش كله فـى أثـرك .. لا أحب أن تطفو القصة للسطح أو تحقق فيها أطراف أخرى .. المشكلة هـى أنـه يعرف أكثر مما يجب وقد جن . أى أن صمته لم يعد مضمونـا ، دعك من أنه قد يموت وتتعرض أوراقه للخطر .. كيف يمكن أن أجده ؟

(*) صدر هذا الحكم بالفعل منذ شهر ونصف عندما تقرأ هذا الكتيب .

منذ أيام خيل لى أننى رأيته يمشى بين قدور الملح لكنه أطلق علىّ الرصاص فى جشع فلم أستطع معرفة ما هو أكثر ..

« لكن السيف ظل معلقًا قرب حلقى .. أنتم تعرفون الجرائم ضد الإنسانية وكل هذا الكلام الفارغ .. لا أريد أن أجد نفسى خلف القضبان بعد ما استقرت بى الأمور .. فجأة وجدتكم فى الصحراء ووجدت أنكم قتلتم (لينوكس) وأن كل أوراقه معكم ! هذا حظ حسن لم أتصوره .. هذا دليل على أن الخير يفوز فى النهاية ! كنت أبحث عنكم لأنقذكم فأنقذت نفسى ! »

ثم نظر إلى فوهة مسدسه ، وقال بلهجة ذات معنى :

ـ « وضعتم أنتم ! »

ونظر لى متسائلاً :

ـ « أين الملفات ؟ »

أشرت بلا كلام إلى صندوق فى ركن المكان جوار صناديق الذخيرة ..

اتجه إليه وهو ينظر لنا باسمًا ، ووضع الزجاجة على الأرض ومد يده يتأكد من أن الملفات موجودة ..

فجأة أطلق صرخة ..

* * *

17ـ رجـل الرمـال ..

عندما صرخ سقط المسدس منه على الأرض ..

ورأيت فى رعب أن عقربًا يزحف مبتعدًا علـى الأرض .. لقد خرج من الصندوق ..

فجأة رأيت ثلاثة عقارب أخرى .. أحدهـا يتسلق ذراع الرجـل ويغرس زبانه فى اللحم بحقد لا شك فيه ..

سقط الرجل على الأرض وهو يسب بالهولنديـة .. هنـا زحـف عقربان ليتسلقا بطنه ..

إن الصندوق مليء بالعقارب . لا شك فى هذا ..

كان يصرخ ويحاول الحركة .. ثم تصلب تمامًا ..

أخيرًا همدت جثته .. طيار هولندى وسيم يرقـد وجـواره علـى الأرض مسدس وسيجار وزجاجة ويسكى مـا زال السـائل يتدفـق منها ..

تبادلنا النظرات فى رعب .. وسألت (سيمونيتا) :

ـ « أنت فتحت هذا الصندوق أمس .. أليس كذلك ؟ »

قالت وهى ترتجف :

ـ « ليس أقل من عشر مرات .. لم يكن يحوى إلا ملفات .. أنت تعرف كما أعرف أن هذا أمر لا يمكن تفسيره .. »

ثم همست وهى تغمض عينيها :

ـ « (مارثا) !! »

قال (فاسيلى) فى رعب :

ـ « الآن أرى أن الحل الوحيد هو أن نهرع إلى الطائرة ونتغلب على الطيار .. »

ـ « يا سلام ؟ والفرار ؟ »

قال وهو يلهث :

ـ « لدى فكرة لا بأس بها عن الطيران .. كنت فى مدرسة تعليم طيران فى (كييف) .. على الأقل لن أصطدم بشىء فى الصحراء .. »

هكذا هرعنا إلى الخارج ..

نزلنا فى المنحدر إلى حيث كانت الطائرة .. سوف نحكى قصة سخيفة عن المرض الغريب الذى أصاب (فان ثورن) وكيف أننا بحاجة إلى عون الطيار .. عندما يترجل من الطائرة سنضربه نحن الثلاثة .. لن نتركه فى الصحراء ليموت بل سنحمله معنا مقيدًا ..

وصلنا إلى الطائرة وقرعنا على زجاج قمرة الطيار عدة مرات ..

ثم تبينا الحقيقة ..

هذا الرجل ليس نائمًا .. هناك عقرب يزحف فوق عنقه ..

* * *

حملنا جثة الطيار وتأكدنا من أن الطائرة خالية من العقارب .. لقد كان فيها خمسة تخلصنا منها ..

وسرعان ما كنا نثب إلى الداخل .. راح (فاسيلى) يتحسس لوحة القيادة ويتذكر ماذا كان يفعل ماذا ..

ثم قال وهو يبلل بطرف لسانه شفته السفلى :

ـ « مثل السيارة .. مثل السيارة .. »

قلت فى غيظ :

ـ « هذا لا يطمئننى على الإطلاق .. أنا لا أعرف كيف أقود سيارة ! »

قال مفكرًا وقد بدأت المروحة الكبرى تدور :

ـ « (أبنجتون) .. سوف نقصد (أبنجتون) أو أى تجمع بشرى نلقاه .. »

- « ولا تدخل حدود بتسوانا من فضلك .. »

- « لا تقلق .. سوف أتجه للجنوب .. فقط الجنوب الشرقى .. »

بدأت الطائرة ترتفع .. الأرض تبتعد .. نراها من أعلى .. نرى الكهوف .. نرى جثة الطيار .. نرى قبرى (سكوتى سميث) وزوجته .. نرى علامة SOS المنطفئة التى بدأت الرمال تغطيها .. نرى الميركات وشجر شوكة الجمل .. نرى الظباء والوعول والتياتل ..

نرى (كالاهارى) ...

الرمال تتطاير فى كل مكان .. يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال .. بعدما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟

كنا نحلق بسرعة الآن عندما صاحت (سيمونيتا) وهى تشير إلى الأرض :

- « انظرا ! »

لم يكن من الممكن أن نتهم السراب أو الهلاوس بهذا .. إنها امرأة سمراء تقف وسط الصحراء وتلوح بيدها لنا ..

هتف (فاسيلى) :

ـ « هل أنزل ؟ .. »

قلت له فى جنون :

ـ « لا .. ربما لا تقدر على الارتفاع ثانية .. غالبًـا لـو هبطنـا لن نجد أى شىء .. »

نحن لم نر (مارثا) .. يجب أن نقتنع بهذا كى لا نجن ..

ثمة أشياء نعرف أنها حدثت ولكن لابد من أن ننساها ..

(مارثا) ساحرة فعلاً .. ظهرت فى حياتنا بشكل غير مسبوق .. وأنقذتنا مرتين بعقاربها .. برغم هذا اختارت أن تقتلهـا العقـارب أو هذا ما خيل لنا .. ربما هى لم تمت قط ..

كيف خرجتْ من الطـائرة ؟ حتـى هـذه اللحظـة لـم نجد إجابـة مقنعة .. يبدو أن (نظرية الشح) تعمل جيدًا بالفعل ..

والطائرة تبتعد ..

هتفت (سيمونيتا) :

ـ « أعتقد أن (كالاهارى) تخلصت من رجل الرمال ! »

قلت فى غموض :

ـ « تذكرى أن (مارثا) كانت تتكلم عن رجل الرمال ، لكنهَا لم تقل قط إنه (سكوتى سميث) .. »

قال (فاسيلى) بصوت عال :

- « هل تريدين رأيى ؟ أرى أن رجل الرمال الحقيقى هو محارب البوشمن .. ليس مثله أحد فى الحياة هنا .. إن الرمال مملكته .. »

* * *

يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال .. بعدما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟

* * *

يبدو أننى غفوت قليلاً بسبب الاهتزاز وصوت المحرك ..

سمعت آخر كلمات قالتها (مارثا) وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة :

- « أنت .. أنت يا (علاء) رجل الرمال .. منذ تعلقت بك وأنا أسميك كذا فى سرى .. نحن نتخيل مصر صحراء شاسعة ، وبما أنك مصرى فقد أطلقت عليك هذا الاسم .. لا يوجد رجل رمال سواك .. على الأقل بالنسبة لى .. »

وشخصت عيناها .. لقد رحلت أو هكذا حسبت ...

رجل الرمـال كـان أنـا .. إذا كنت قد افترضت أنـه (سـكوتى سميث) فهذا خطئى وليس خطأها ..

فيمـا بعد سوف أحـاول فهم سبب إعجـاب الساحرات بـى .. خاصة إذا كن أفريقيات .. أما الآن فأنا متعب وأريد أن أنام ..

أريد أن أجد تفسيرًا لكن هـذا للأسف لا يعنينا كثيرًا هنا فـى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم
من قرب ديربان

* * *

تمت بحمد الله

سافارى
مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا



د. أحمد خالد توفيق

الأخير

يوما قال لهم (فان راين) :

- لا يدنون أحدكم من قدور الملح .. أنا كنت هناك ورأيتهم في ضوء الشمس .. هياكل هؤلاء البوشمن .. عشرة هياكل عظمية ملقاة جنبا إلى جنب حتى تجففها الشمس ...

تذكرت (سكوتى سميث) على الفور .. إنه مدفون هنا فى (أبنجتون) ... هل علمتم ذلك ؟.. أنا ذهبت إلى هناك .. هل تعرفون ما رأيته ؟... لقد نبش قبره !!!.. (سكوتى) العجوز لم يعد نائما فى قبره .. إنه هناك وسط (كالاهارى) يصطاد البوشمن ... أنا أعرف ذلك ... كل البوشمن يعرفون ذلك ...

العدد القادم
NDE

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



